



الإسلام الأجر
ومشكلات الحضانة



سيد قطب

دار الشروق

الإسلام
ومشكلات الحضارة

الطبعة الشرعية التاسعة

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الطبعة الشرعية العاشرة

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الطبعة الشرعية الحادية عشرة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الطبعة الشرعية الثانية عشرة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الشرعية الثالثة عشرة

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيديويه المصري - مدينة نصر

تليفون: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

سَيَقُطِبُ

الإِسْلَامُ وَمُشْكَلَاتُ الْحَضَارَةِ

دار الشروق —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تدمير الإنسان

الحياة الإنسانية - كما هي سائرة اليوم وكما هي صائرة وفق جميع التقديرات الظاهرة - لا يمكن أن تستمر في طريقها هذا ، ولابد لها من تغيير أساسي في القاعدة التي تقوم عليها . تغيير يعصمها من تدمير « الإنسان » ذاته ، بتدمير خصائصه الأساسية . فالحياة الإنسانية - بداهة - لا تستطيع أن تبقى إذا ما دمرت خصائص « الإنسان » .

ونخط الحياة الحالي يمضى يوماً بعد يوم في تدمير خصائص الإنسان ، وتحويله إلى آلة من ناحية ، وإلى حيوان من ناحية أخرى . . . وإذا كان هذا الخط لم يصل إلى نهايته بعد ، وإذا كانت آثار هذه النهاية لم تتضح انضاحاً كاملاً . . . فالذى ظهر منها حتى اليوم ، وفي الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة المادية ، يشي بتناقض الخصائص الإنسانية وضمورها وتراجعها ، بقدر ما يشي بنمو الخصائص الآلية والحيوانية وتضخمها وبروزها . . . وهذا يكفي . . .

يكفى لتقرير أن خط الحياة يمضى يوماً بعد يوم في تدمير خصائص الإنسان ، ولتقرير أن الحياة الإنسانية لا يمكن - إذن - أن تمضى مع هذا الخط إلى نهايته . . . ما لم يكن مقررًا تدميرها نهائياً . . . والأمل في رحمة الله يمنع من توقع هذا المصير البائس ، ويوجه توقعاتنا إلى ناحية أخرى : ناحية تجنب الإنسانية - بفطرتها وطبيعتها ، وبموامل الحسد والحذر والاحتياط الكامنة في

كيانها - لهذا المصير البائس ، بالتحول عن طريق الخطر في الوقت المناسب .
واختيار خط آخر وطريق آخر . والتغلب على هذه الأزمة التي يجد «الإنسان»
فيها نفسه على حافة الهاوية . وهو مندفع إليها بعنف ، وهو في الوقت ذاته لا
يملك الخيار ، لأن عوامل كثيرة تكاد تفقده قوة الاختيار .

وفي كل مرة كانت الحياة «الإنسانية» والخصائص «الإنسانية» مهددة
تهديدًا مدمرًا ماحقًا ، وقع التحول - بطريقة خفية ، كثيرًا ما كانت مجهولة
الأسباب في حينها - وتجنبت البشرية ذلك الدمار «الإنساني» . أما في هذه
المرّة فالتهديد أشد من كل ما عرفته البشرية من قبل من كل أنواع التهديدات .
وكان الكثيرون قد عقدوا آمالهم في هذا التغيير على «الماركسية» . على
المادية الجدلية ، وعلى التفسير الاقتصادي للتاريخ . . ولكن هذا لم يكن إلا
وهماً . فالماركسية - مع التفسير المادي الجدلي للتاريخ - لا تمثل إلا دفعة في خط
الدمار ذاته . وليست تحولاً أصلاً . لا في طبيعة الخط ولا في اتجاهه . . إنها
القمة التي يصل إليها الخط المادي في التفكير ، والآلية المادية في تصور
وتكييف الحياة البشرية . .

كذلك يتجلى فشل كل المحاولات الأخرى ، التي يراد بها وضع
«أيدولوجية» جديدة ، تجد فيها البشرية غناء ، وتجد فيها مخرجاً من الأزمة
الحادة التي انتهت إليها ، فكلها أفكار جزئية سطحية ، وكلها محاولات
مصطنعة لا جذور لها في الفطرة البشرية !

وحين نتلفت من حولنا في الماضي والحاضر ، وفي المستقبل كذلك ، لا
نجد الحل المقترح لتجنب البشرية ذلك الدمار ، وللمخروج بها من هذه الأزمة
الحادة ، وللاحتفاظ بـ «الإنسان» عن طريق الاحتفاظ بخصائصه الإنسانية

- احتفاظاً نامياً متجدداً - إلا في التصور الإسلامى ، والمنهج الإسلامى ،
والحياة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامى .

ومن ثم نعتقد أن قيام المجتمع الإسلامى ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية .
وأنه إذا لم يقم اليوم فسيقوم غداً ، وإذا لم يقم هنا فسيقوم هناك . ليعصم
البشرية من « تدمير الإنسان » عن طريق تدمير خصائصه الإنسانية ، ومن
تدمير الحياة الإنسانية التى لا تقوم بغير إنسان يحتفظ بخصائصه الإنسانية ، في
حالة نهاء وارتقاء .



ولكن كيف تبدو الحياة الإنسانية مهددة بتدمير الإنسان عن طريق تدمير
خصائصه الإنسانية ، في ظل الحضارة القائمة ، وعلى امتداد الخط الذى تسير
فيه الحياة الإنسانية اليرم - بصفة عامة - الأمر الذى يجعل قيام المجتمع
الإسلامى ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية ؟ .

لعله يحسن أن نكشف عن أهم عناصر هذه المأساة في اختصار . .
إن أهم عناصر هذه المأساة تتمثل في :

١ - جهلنا المطبق بالإنسان - على الرغم من سعة علمنا نسبياً بالمادة ، وبطرائق
التصنيع المادية ، القائمة على أصول فنية راقية - ومن ثم عدم استطاعتنا
أن نضع له - من عند أنفسنا - نظاماً شاملاً لجوانب حياته كلها ،
يتناسب مع طبيعته وخصائصه ، ويحتفظ بها جميعاً في حالة تجدد ونمو
وازدهار، موسوم بالتناسق والاعتدال .

٢ - تخطيط الحياة البشرية لقيامها على أساس من هذا الجهل ، منذ افترق
طريقها عن المنهج الذى وضعه للإنسان صانعه الحكيم ، الخبير بفطرته

وبخصائصه . . المنهج المراعى فيه تلبية حاجته الفطرية الحقيقية الكاملة، وتنمية خصائصه وترقيتها كذلك ، حتى تتكافأ مع الدور المفسوم لهذا الكائن فى الخلافة فى الأرض ، وتنمية الحياة فيها وترقيتها، واستغلال كنوزها وطاقاتها كلها فى التعمير والتنمية والارتقاء .

٣ - قيام حضارة مادية لا تلائم الإنسان ، ولا تحترم خصائصه تعامله بالمقاييس الآلية - التى هى فى دائرة علمنا ومعرفتنا المترقية - وبالمقاييس الحيوانية ، التى أمكن دراستها فى عالم الحيوان !

٤ - بروز آثار هذه الحضارة وتضخمها فى الأمم التى وصلت إلى قمة الحضارة المادية ، وسارت شوطاً بعيداً فى تطبيق المنهج الآلى الحيوانى على الحياة الإنسانية ، بدون كبير اعتبار للخصائص الإنسانية الأصلية ، التى تفرق «الإنسان» من «الآلة» ومن «الحيوان» . وظهور طلائع مفرعة ، تنذر بها وراءها من الدمار . .

وتناول هذه العناصر بشيء من الشرح والإيضاح يكفى لتصوير حقيقة المأساة التى تعيشها البشرية بجماليتها اليوم - شاعرة أو غير شاعرة - ولتصوير حقيقة الكارثة التى تنحو البشرية بجماليتها نحوها - شاعرة كذلك أو غير شاعرة - كما يكفى كذلك لإثارة التطلع إلى رحمة الله لتجنيب البشرية ذلك المصير البائس ، بالاستماع إلى نداء الفطرة ، وصوت الله ، ولو فى آخر اللحظات .

الإنسان ذلك المجهول

هذا العنوان ليس من عندنا ، إنما هو من عند «عالم» أوروبى - أمريكى - لا يجادل «علماء» الحضارة الحديثة فى مكانته «العلمية» ولا فى «حدائث» نظرياته - أو دراساته بتعبير أدق - ولا فى جديتها .

إنه عنوان كتاب مشهور للدكتور «الكسيس كاريل»^(١) .

والكتاب يعرفنا بنفسه وبكتابه فى مقدمة هذا الكتاب . وسنحتاج أن ننقل قسماً كبيراً من هذا التعريف فى هذا الفصل ، لأهميته فى الاستدلال الذى نرمى إليه ، وذلك قبل أن نقتبس آراء هذا «العالم» الكبير عن «جهلنا المطبق» بالإنسان . . .

«لست فيلسوفاً ، ولكنى رجل علم فقط ، قضيت الشطر الأكبر من حياتى فى المعمل ، أدرس الكائنات الحية ، والشطر الباقى فى العالم الفسيح ،

(١) ولد الدكتور كاريل بالقرب من ليون فى فرنسا ، وحصل على إجازة الطب بها ، كما حصل على إجازة العلوم من ديجون . وبعد أن مارس التدريس فى جامعة ليون عدة أعوام رحل إلى الولايات المتحدة . واشتغل فى معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك . وبقي به قرابة ثلاثين عاماً حتى اعتزل العمل به سنة ١٩٣٩ . ثم عهدت إليه وزارة الصحة الفرنسية بمهمة خاصة تتصل بالحرب ، وكانت هذه المهمة تكملة لمهمة اضطلع بها إبان الحرب العالمية الأولى ، عندما كان يعمل جراحاً مع القوات الفرنسية والبريطانية والأمريكية . . . ومنح جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة . . .

أراف بنى الإنسان ، وأحاول أن أهمهم . ومع ذلك فإننى لا أدعى أننى
أعالج أموراً خارج نطاق حقل الملاحظة العلمية .

«إننى أحاول أن أصف فى هذا الكتاب ما هو معروف بعد أن أفصله بكل
وصوح عن كل مديح كما أعترف بوحود المجهول غير المعروف .

«ولقد اعتبرت «الإنسان» ملخصاً للملاحظات والتجارب ، وفى جميع
الأوقات والبلدان ، بيد أننى لم أصف إلا ما رأيته بماظرى ، أو عرفته مباشرة
من أوثقك للذين كنت على صلة بهم . وكاد من حسن حظى ، أن سمح لى
مركرى بأن أدرس - دون بدل أى مجهود ، أو الطمع فى أى ثناء - ظواهر الحياة
فى تعييدها المخيف . فلاحظت كل وجه من وجوه النشاط البشرى بصفة
عملية ، كما أسى ملم بكل ما يكتنف الفقير والعسى ، الصحيح والسقيم ،
المتعلم والجاهل ، ضعيف العقل والمحنون ، الدكى والمحرم . . الخ . .
كذلك فلأسى أعرف الفلاحين والعمال ، الكتبه وأصحاب المتاجر ، المالىين
وأصحاب المصانع ، الساسة ورجال الحكم ، الجنود وأستاذة الجامعات ،
المدرسين ورجال الدين ، البرجوازيين والأرستقراطيين . . ولقد ألفت بى
الظروف فى طريق الفلاسفة ولقاس ، ولشعراء والعلماء ، والعذرة
والقديسين . كما درست فى الوقت نفسه التركيب الميكانيكى العائر فى أعماق
الأسحة وتلافيف المح ، الذى هو فى الحقيقة لأساس العميق للظواهر
العصوية والعقلية .

«أسى مدير لليون الحياة العصرية ، لأنها مكتنى من مشاهدة هذا لمظر
العظيم ، كما أناحت لى فرصة توجيه انتاهى لى عدة موضوعات فى وقت
واحد . إننى أعيش فى العالم الحديد والقديم أيضاً . وأمتاز بأننى أقصى

معظم وقنى فى « معهد روكملر للبحث الطبى » كواحد من العلماء الذين جمعهم « سيمون هيكسر » معاً فى هذا المعهد . فهناك أفكر فى طواهر الحياة حين يحددها الخبراء الذين لا يبارون ، أمثال « ملتر » و « جاك لويب » و « جيوشى » ، وكثيرون غيرهم . ولما اتصف به « هيكسر » من عبقرية ونبوغ ، فقد دُرِسَتْ الكائنات الحية بظرة فسيحة الأفق . بشكل لم يسبق له مثيل - فإفادة تفحص وتستقصى فى كل قسم من معامل هذا المعهد ، بحثاً عن ارتقائها وتطورها من ناحية صنع الإنسان .

« وبمساعدة أشعة إكس يكشف علماء الطبيعة عن بناء جزيئات مواد أسجما الأكثر بساطة - أى العلاقات الاتساعية للذرات التى تدخل فى تركيب هذه الجزيئات - ويعكف الكيماويون ، والكيمويون الطبيعيون ، على تحليل المواد الأكثر تعقيداً ، التى توحد بداحل جسم ، كهيمو حلويين لدم ، وبروتينات الأنسجة ، وحلاط الجسم ، ولتخميرات التى تسبب ذلك الانقسام المستمر ، وإيجاد ذلك المجموع الكلى الهائل من الدرات .

« وهناك كيمايون آخرون لم يقصروا اهتمامهم فى تركيبات الجزيئات وحدها ، وإنما نصرفوا إلى التفكير فى علاقات تلك التركيبات ، حذاها بالآخرى ، عندما تدخل عصارات الجسم . أو باحتصار ذلك التعادل لظيحي - الكيماوى الذى يحفظ دائماً تركيب مصل الدم ، بالرغم من التغير الذى يطرأ على الأنسجة بصفه مستمرة .

« وهكذا ألقى الضوء على الجوانب الكيماوية للطاهرة الفسيولوجية ، لأن كثير من من علماء وطائفة الأعضاء يدرسون - مستعسين فى ذلك نفنون شديدة الاختلاف - التركيبات الأكبر التى تنتج من مجموع الجزيئات وترتيبها ، كذا

خلايا الأنسجة والدم ، أو بمعنى آخر ، مادة الحياة نفسها . . . إسمهم يختبرون هذه الخلايا ، وطرق اتحددها ، ولقوانين التي تحكم علاقاتها بي يحيط بها ، وتأثير الوسط الكونى على هذا المجموع ، كذا تأثيرات المواد الكيماوية على الأنسجة والشعور

«وهذا حصان آخرون ، وقمر أنفسهم على البحث في تلك الكائنات الضئيلة : الفيروس والبكتريا ، التي تعبر صائننا بالأمراض المعدية إلى وجودها في دما . كذا الوسائل الرائعة التي يستحدها الإنسان في مقاومتها وأيضا الأمراض لقائمة كالسرطان . و أمراض القلب ، ولتهاب الكلى «وأخيرا فإن مشكلة «الفردية»^(١) الخطيرة ، وأساسها الكيماوى تهاجم الآن منجاح .

«وقد اتحت لي فرصة استثنائية للاستماع إلى دحان عظيم تخصصوا في هذه الأبحاث ، وتنوع النتائح التي أسفرت عنها تجاربهم وهكذا بدت لي الجهود التي تبذلها المادة الحامدة في بطن الجسم ، وخواص الكائنات الحية ، ونسب جسم وعقل . بدت في هذه الأشياء في أوج هائل وعلا على ذلك فقد درست أكثر الموضوعات المختلفة ، من الجراحة ، إلى فسيولوجية الخلية ، إلى الميتافيزيقا^(٢) .

«ولقد كان ذلك مستطاعا بسبب التسهيلات التي وصفت لأول مرة تحت تصرف العلم لكي يؤدي رسالته » . (ص ٥ - ص ٨)

* * *

(١) كون كل فرد إنسانى له خصائص ذاتية غير الخصائص الإنسانية المشتركة - نعلمه كائنا بذاته أو علما بذاته

(٢) ما وراء الطبيعة

هذا الرجل الذي أتيت له فرصة الانتفاع بكل هذه التيسيرات ، والذي
اطلع على نتائج هذه البحوث مختمة حول «الإنسان» هو الذي يصدر بعد
ذلك كتاباً يسميه «الإنسان ذلك المجهول»^(١) والذي يقرر أن حقيقة علمنا
عن الإنسان لا شيء ! وأما نعيش في «جهل مطلق» بهذا الكائن ، الذي هو
نحن !

ولندعه هو يتكلم :

«هناك تفاوت عجيب بين علوم الجهاد وعلوم الحياة . فعلوم الفلك
والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها ، بسداد وفصاحة ،
بالدقة الحسابية . وقد انشأت هذه العلوم عالماً متناسقاً كتناسق آثار اليونان
القديمة . إنها تنسج حول هذا العالم سيجاً رائعاً من الإحصاءات والنظريات .
«بيد أن موقف علوم حياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى يبدو
كأن الدين يدرس الحياة قد صلوا في غاب منشآت الأشجار ، أو أنهم في
قلب دغل سحري ، لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تعبير أمكنها
وأحجامها . فهم يرزحون تحت عبء أكداًس من الحقائق ، التي يستطيعون أن
يصفوها ، ولكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها في معادلات خبرية .
فمن الأشياء التي تراها العين في عالم الماديات ، سواء كانت درات أم نجومًا ،
صخوراً أم سحباً ، صلباً أم ماء . . . أمكن استخلاص خواص معينة كالثقل
والأبعاد الاتساعية . وهذه المستخلصات - وليست الحقائق العلوية - هي مادة
التفكير العلمي . . وملاحظة الأشياء تمداً فقط بأقل صور العلم شأن ،

(١) تعريب شفيق أسعد فريد - مشورات مكتبة المعارف بيروت

ويعنى بها الصورة الوصفية . فالعالم الوصفى يرتب الطواهر . بيد أن العلاقات التى لا تتغير ، بين الكميات غير القابلة للتغيير - أى القوانين الطبيعية - تظهر فقط عندما يصبح العلم أكثر معنوية . وما ذلك إلّا الحاح العظيم السريع الذى يراه فى علمى الطبيعة والكيمياء إلّا لأنها علمان معنويان كمّيان فعلى الرغم من أنها لا يدعيان أنها يكشفان القناع عن الطبيعة الهائية للأشياء ، فإنها يمدان بقوة التفسير حدوث المستقبل ، وتقرير كيفية وقوعها طبقاً لإرادته . وتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استنطق النظر بالسيادة تقريباً على كل شيء موجود على ظهر السبيطة فيما عدا أنفسنا

«ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة - والإنسان بصفة خاصة - لم يصب مثل هذا التقدم . إنه لا يزال فى المرحلة الوصفية فالإنسان كل لا يتحرراً ، وفى غاية التعقيد ، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط به ، وليست هناك طريقة لفهمه فى مجموعه ، أو فى أجزائه ، فى وقت واحد كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى .

ولكى نحلل أنفسنا فإننا مضطرون للاستعانة بفنون مختلفة ، وإلى استخدام علوم عديدة . ومن الطبيعى أن تصل كل هذه العلوم إلى رأى مختلف فى غايتها المشتركة ، فإنها تستخلص من الإنسان ما نمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط . وبعد أن نضرب هذه المستخلصات بعضها إلى بعض ، فإنها تبقى أقلّ عناء من الحقيقة الصلبة . . إنها تخلف وراءها بقية عظيمة لأهمية ، بحيث لا يمكن إهمالها .

«إن التشريح والكيمياء ، ولفسيولوجيا وعلم النفس ، والبيداجوجيا (من تعليم) والتدريج وعمم الاحتياج ، والاقتصاد السياسى . لا تلم

بحواث موضوعها كلها و « الإنسان » - كما هو معروف للإحصائيين - أبعد من أن يكون « الإنسان الحامد » و « الإنسان الحقيقي » لا يريد أن يكون رسماً بياناً ، يتكون من رسوم بيانية أخرى أشأتها فروع كل علم وهو - في الوقت نفسه - « الحثة » لتي شرحها البيولوجيون (علماء الحياة) ، و « لشعور » لدى لاحظته علماء النفس وكبار معلمى الحياة الروحية ، و « الشخصية » التي أظهر التأمل الباطنى لكل إنسان أنها كامنة في أعماق ذاته . إنه - أى الإنسان - عبارة عن « المواد الكيميائية » التي تؤلف الأسسجة وأحلاط أجسامنا . إنه تلك الجمهرة المدهشة من « الخلايا والعصارات المعدنية » التي درس الفسيولوجيون (علماء وظائف الأعضاء) قوانينها العنصرية . إنه ديت « المركب من الأنسجة ولشعور » الذي يحاول علماء الصحة والمعدمون أن يقودوه إلى درجات العليا أثناء نموه مع الزمن . . إنه ذلك « الكائن الحى العالى » الذي يجب أن يستهلك بلا تقطاع انسلع لتي تتحها المصانع ، حتى يمكن أن تظل الآلات - التي جعل لها عدداً - دائرة بلا توقف ولكنه قد يكون أيضاً شاعراً ، وبطلاً أو هديس إنه ليس فقط ذلك المخلوق شديد التعقيد الذي نمجده نمونا العدمية ، ولكنه أيضاً تلك « الميول والتكهنات وكل ما تشده الإنسانية من طموح .

« وكل آرائنا عنه مشربة بالفلسفة العقلية . . وهذه الآراء حيث تنهض عن فيص من « المعلومات غير الدقيقة » بحيث يراودنا إعراء عظيم لاحتار من بينها ما برصيب ويسرن فقط . ومن ثم فإن فكرتنا عن « الإنسان » تختلف تبعاً لإحساساتنا ومعتقداتنا . فالشخص المادي والشخص الروحى يقلان نفس التعريف الذى يطلق على صورة من « لكلوريد » ولكنها لا يتمم أحدهما

مع الآخر في تعريف « الكائن الحي » . وعلم وظائف الأعضاء في « عمليات الجسم الميكانيكية » وعلم وظائف الأعضاء الذي يبحث في « مذهب الحياة نفسه » لا يمكن أن ينظرا إلى جسم الإنسان من زاوية واحدة . وكذلك فإن الكائن الحي كما يراه « حاك لوبيت » ، يختلف اختلافاً عظيماً عما يراه « هاسر » و« ريش »

« وفي الحق لقد بذل احسن الشرى مجهوداً حثيثاً لكي يعرف نفسه ، ولكن بالرغم من أننا نملك كثيراً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء لروحانيات في جميع الأزمان ، فإننا استطعنا أن نفهم حجاب معينة فقط من أنفسنا . إننا لا نفهم الإنسان ككل . إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا فكل واحد مما مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حفيظة مجهولة !!
« وواقع الأمر أن جهلنا مطلق فأغلب الأسئلة التي يلقونها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجسم البشري تظل بلا جواب لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا المادية . ما زالت غير معروفة فعن لا نعرف حتى الآن ، الإجابة عن أسئلة كثيرة مثل :

« كيف تتحد جزيئات المواد الكيميائية لكي تكون المركب والأعضاء المزدوجة للخلية ؟

« كيف تقرر « الحيس » (ناقلات الوراثة) في نواة الببضة المقلحة ، صفت الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

« كيف تنظم الخلايا في جماعات من تنقاء نفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهي كسمل والنحل تعرف مقدماً اسرور لدى قدر لها أن تلعبه

في حياة المجموع ، وتساعد العمليات الميكانيكية الحفيه على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته .

«ما هي طبيعة تكويننا النفسي والفسيولوجي ؟ إنا نعرف أن مركب من الأسجة ، والأعضاء ، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً . إنا ما زلنا بحاجة إل معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا العصبية . إلى أي مدى تؤثر لإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟ على أي وجه نستطيع الخصائص العضوية العقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة طريق الحياة والمود الكيميائية الموحدة في لطعام والملح ، والطعم النفسية والأدوية ؟

«إنا ما زلنا بعيدين جدًا عن معرفة ما هية العلاقات الموحدة بين الهيكل العظمي والعصلات والأعضاء ، ووحوه النشاط العقل والروحي و ما زلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ، ومقاومة التعب ، والكفاح ضد الأمراض .

«إنا لا نعرف كيف يمكن أن يرداد الإحساس الأدبي ، وقوة الحكم ، والحرأة . . ولا ما هي الأهمية السسية للنشاط لعقلي ولأدبي . كذلك النشاط الديني .

«أي شكل من أشكال لنشاط مسئول عن تبادل الشعور أو الخواطر؟
« لا شك مطلقاً في أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هي التي تقرر السعادة أو التعاسة ، النجاح أو الفشل . . ولكنها لا نعرف ما هي هذه العوامل إنا لا نستطيع أن نهب أي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية

«وحتى الآن فيما لا نعرف أى الـيـثـات أكثر صلاحية لإشـاء الـرحـل المتـمـدـين والمتـقـدم .

« هل فى الإمكان كـت روح الكـفـاح والمـجـهـود ، وما قد نـحـس به من عـناء سبب تـكوـيـنـا الـفـسـيـولـوجـى والـروحـى ؟
« كيف سـتـطـيـع أن نـحـور دون نـدـهـور الإـنـسان واسـحـطـاطـه فى المـدـيـنة العـصـريـة ؟

« وهـنـاك أسـئـلة أـخـرى لا عـداد لـها ، يـمـكـن أن تـلقـى فى مـوـضـوعـات تـعـتـبر فى غـايـة الأهمـية بالنسبة لنا ولكنها سـتـظـل حـيـعـًا بـلا جـواب . فـمـن الواضـح أن حـمـيـع مـ حـقـقـه العـلـماء من بـقـدم فىـما يـتـعـلـق بـدـراسـة الإـنـسان ، غـيـر كاف ، وأن مـعـرفـتـنا بـأنـفـسـنا ما زالت بـدائـية فى الغـالب . . . » ص (١٣ - ١٨) .



ولكن لماذا كان جهلنا مطلقاً بحقيقة الإنسان ؟ لماذا كانت الحقيقة نسير فى موكب من الأشباح ، بحيث لا نستطيع رؤيتها بوضوح ؟ لماذا كان الذين يدرسون حياة كمن ضلوا طريقهم فى غاب متشابك الأشجار ، أو فى قلب دغل سحرى ، لا تكف أشجاره التى لا عداد لها عن تعبير أماكنها وأحجامها ؟ هل كان ذلك لفصور وسائلنا العممية فى فترة من انقترات ؟ أم ظروف وقتية من ظروف حياتنا الإنسانية ؟ ومن ثم يكون هناك أمل كبير وفرص كثيرة لتكملة تلك الوسائل ، وتعير هذه الظروف ، ثم الوصول إلى معرفة الحقيقة الإنسانية كاملة واضحة محددة ؟

أم أن هناك أسباباً ثابتة فى طبيعة الحقيقة الإنسانية من جهة ، وفى طبيعة تفكيرنا وعقولنا من جهة أخرى ، هى التى تنشئ تعذر الوصول إلى هذه

الحقيقة بحث الوضوح والدقة المعهودين في عالم الددة^٩

يقرر العالم اكبر وجود هذه لأسباب وتلك ، ويقرر أنه لا أمل في إزالة هذا النوع الأخير من أسباب تعدد هذه الحقيقة . يقرر هذا في أسلوب العلم ، الذي واحه هذه الحقيقة ، وعرف طاقة العلم وحدوده في محالها . . ومع أن الإقتباس من كلامه سيطول ، فإننا نؤثر أن ندعه هو يتكلم في هذه النقطة بأسلوبه الخاص ومن وجهة نظره التي قد نوافقه على بعضها ، ونحالفه في بعضها:

«قد يعرى جهل في الوقت ذاته ، إلى طريقة حياة أجدادنا . وإلى طبيعتنا المعقدة وإلى تركيب عقلنا . .

«مهما يكن من أمر ، فقد كان على الإنسان أن يعيش . وهذه الضرورة طالته بقهر العالم الخارجي . وإذا لم يكن له مهرب من الحصول على الغذاء والمأوى ، كما لم يكن له مهرب من قتال الحيوانات المتوحشة وغيره من ميسر الإنسان . ولأمداد طويلة لم يهر أجدادنا الأوائل بوقت فراغ ، كما لم يشعروا بأى ميسر إلى دراسة أنفسهم ، إذ كانوا يستخدمون عقولهم في أمور أخرى كصناعة الأسلحة والأدوات ، وكشف النار ، وتدريب الماشية والحيوان ، وحفر المركبات ، وزراعة الحبوب الخ . وقبل أن يهتموا بتركيب أدمهم وعقولهم بوقت طوي ، فكروا في الشمس والقمر والنجوم ، والتيارات المائية ، وتوالى العصور الأربعة . ولهذا تقدم علم الملك بطني واسعة ، في عهد كان علم الفسيولوجيا لا يزال غير معروف تمامًا . . فقد قهر جاليليو الأرض وهي مركز المجموعة الشمسية . وذلك على أنها تسع متواضع من تربع الشمس . بينما لم تكن لدى معاصريه أية فكرة . ولر أولية ، عن تركيب ووظائف العقل

والكبد ، وعدة النيارويد (العدة الدرقية) . وطرًا لأن الجسم البشرى يؤدى وظائفه بطريقة مرضية في أحوال الحياة الطبيعية ، ولا يحتاج لأى اهتمام ، فقد تقدم العلم في الاتجاه الذى وجهه إليه حب الاستطلاع البشرى - أى في اتجاه العالم الخارجى

ومن بين ملايين الملايين من الجسم البشرى الذين سكنوا هذا العلم والتعاقب ، كان يوجد أشخاص قلائل ، من حين لآخر ، وهتهم الطبيعة^(١) قوى مذهشة نادرة ، كسرعة إدراك الأشياء المجهولة ، والخيال الذى انتدع عوالم جديدة ، والقدرة على اكتشاف العلاقات الخفية الموجودة بين ظواهر معينة . وقد استكشف هؤلاء الرجال العالم المادى وهو عالم بسيط التركيب . ومن ثم فقد استسلم بسرعة هجمات العداء ، وسهم أسرار قوابع معينة من قواابعه . وقد مكنت معرفة هذه القواابع من استخدام عام المادة لهائدتنا فإن التطبيق العلمى للاكتشافات العلمى يدر ربحًا على أولئك الذين يحسبون ويرتقون . وفصلًا عن ذلك ، فإن استخدامهم يؤدى إلى تسهيل حياة الجميع . إن هذه الاكتشافات تسعد الجمهور ، لأنها تبرد من راحته ورفاهيته . وبانطع أصبح كل شخص أكثر اهتمامًا بالاكتشافات التى تقلل من بدل المحمود لأدمى ، وتخفف العبء عن العامل ، وتزيد سرعة وسائل

(١) على الرغم من إيمان الرجل بالله الإلهام ، نعمت على مشاهدته بحقيقة في محو نعيمى فإنه سدس في بعيره مثل هذه الخمة « وهتهم بطيعة » حكمه انواراة والرواسب الثقوبه لعدته وهو بعير لا معنى له في لعقل المؤمن ' فإن لوهب هو الله ، ولطسعه - بمعنى الكوب - من حقق الله ، وهى غير قدرة على اهبة ولا الخلق ، لأنها ليست به ، فلا إله إلا الله ومن ثم لا خلق إلا الله ولا واهب إلا الله

المراصلات ، ولطف من حشونه الحياة ، أكثر من اهتمامه بالاكشافات التي تلقى بعض الضوء على أحسامنا وإحساساتنا وهكذا أدى قهر^(١) العالم المادى ، الذى استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة ، إلى بسس العالم العضوى والروحى نسياناً تاماً .

«وحقيقة الأمر أنه لم يكن مصاص من معرفة ما يحيط بها ولكن ذلك لا يعنى أن معرفة طبيعتنا أقل أهمية ومع ذلك فقد احتدب المرض والألم والموت ، وإلى حد ما تلك اللهفة العامصة من نمو تلك القوة الخفية التى تسمى على عالمنا المادى . . كل هؤلاء احتدبوا انتباه بنى الإنسان - بل درجة ما - نحو العالم الداخلى لأحسامهم وعقولهم

«وقد قنع الطب فى بادئ الأمر ، بالمشكلة العملية ، أى إراحة الإنسان من المرض عن طريق الوصفات . ولكنه - أى الطب - أدرك أخيراً ، أن الطريقة الفعالة لمع المرض أو الشفاء منه ، هى فهم الجسم الطبيعى والجسم لمرضى فهماً تاماً . . وبعبارة أخرى إنشاء العلوم التى تعرف باسم «علم لتشريح» و«علم كيمياء الحياة» و«علم وطب الأعضاء» و«علم الأمر ص»
«وعلى كل حال كان يبدو لأسلافنا أن لعب وجودنا ، ومتعب الأدب وهفتنا

(١) التعبير بكلمة «فهر» طاهره من طواهر العصبه العربيه - بشأ غير رست من روايت لأساطير الإغريقيه ، رومانيه ، ويعدها منطق «لهفه» لست فى أوروبا الاستعربه
إد تقوم كل علاقة فى حش الأوروبى على أساس «لهفه» و«مقهورا» إد ليس هناك علاقة «نفسهم» أو «نفسه» أما فى حش بسس فلهفه هو الذى سحر يكون للإنسان . ولإنسان «يتعرف» إلى انوار بسس لكونه فينتفع بها بإد الله (مراجع تنوسع كتاب : حصائص النصور الإسلامى ومقوماته) . لمؤلف

على المجهول ، وظهر علم ما وراء المادة ، أكثر أهمية من الألام البدنية والأمراض . ومن ثم فقد اجتهدت دراسة الحياة الروحية والفلسفة أقطار رجال عظماء أكثر مما جتذبتهم دراسة الطب . وعرفت قوانين « لتصوف » قبل أن تعرف قوانين علم وظائف الأعضاء . ولكن أمثال هذه القوانين عرفت فقط عندما ظفر الإنسان بوقت فراغ كاف ، جعله يحول فيلاً من اهتمامه إلى أشياء أخرى غير قهر العالم الخارجى .

«وتم سبب آخر للبطء الذى اتسمت به معرفتنا لأنفسنا . . وذلك أن تركيب عقولنا يجعلنا نبتهج بالتفكير فى الحقائق البسيطة ، إذ أننا نشعر بضرب من النقص حين مضطر إلى تولى حل مشكلة معقدة مثل تركيب الكائنات الحية والإنسان . . فالعقل - كما يقول برجسون - يتصف بعجز طبيعى عن فهم الحياة . وبالعكس فإننا نحس أن نكشف فى جميع العوالم ، تلك الأشكال الهندسية الموحدة فى أعماق شعورنا . . إذ دقة لىسب البادية و تماثلنا ، وإتقان آلاتنا ، يحبران عن صفة أساسية لعقلنا . . فالهندسة غير موجودة فى ديانا وإسنا أنشأناها نحن . إذ أن وسائل الطبيعة لا تكون أبداً بالدقة التى تتصف بها وسائل الإنسان . نحن لا نجد فى العالم ذلك الوضوح وتلك الدقة اللذين يتصف بهما تفكير . . ومن ثم فإننا نحاول أن نستخلص من تعقد تطاير ، بعض النظم البسيطة التى تربط بعض عناصرها بالأخرى علاقات معينة ، تكون فائدة بلوصف حسابي . وقدرة الاستخلاص هذه التى يتمتع بها العقل لشرى مسئلة عن ذلك التقدم الرائع الذى أحرره علماء الطبيعة والكيمياء

«ولقد لميت الدراسة الطبيعة - الكيفية لىكائنات الحية بحاجة مماثلاً،

فقوانين الطبيعة والكيمياء متماثلة في عام الكائنات الحية وعالم الجهاد - كما حذر بيان كلود برنار منذ أمد بعيد - وهذه الحقيقة توضح لماذا كتشف علم وظائف الأعضاء الحديث مثلاً ، أن استمرار قلوبه الدم وماء المحيط تصرفه قوانين متماثلة ، وأن النشاط الذي تستهلكه العضلات المتقبضة يقدمه تحمر السكر . انح ، وأن الواحي الطبيعية - الكيمائية للكائنات الحية يسهل تقريباً فحصها ، مثل تلك الواحي في الأشياء الأخرى الموحودة في العام المادى . تلك هي المهمة التى نجح علم الوظائف العام في تحقيقها

«إن دراسة الظواهر الفسيولوجية الحققة - أى تلك الظواهر التى تنتج من تنظيم الكائن الحى - تواحه عقبت أكثر أهمية ، إذ أن شدة صلة لأشياء الى يجب تحليلها ، تجعل من المستحيل استخدام لقوى العادية لعلمى الطبيعة والكيمياء . فأى طريقة يمكن أن تكشف القاع عن التركيب الكيمائى لواء الخلية الحسية ، والكروموسومات ، والجيس التى تؤلف هذه الكروموسومات؟ مهما يكن فإن المجموع الكلى للمواد الكيمائية الشديدة الصلابة ، على أعظم حسب من الأهمية ، لأنها تحتوى على مستفس الفرد والجنس كما أن قابلية أسجة معينة لسرعة اعطب - مثل المادة العصبية - عظيمة إلى درجة أن دراستها في حالة احية مستحيلة تقريباً

«ونحن لا نملك أى فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وخوامضه، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه . و عقلنا الذى يجب ذلك الحال البسيط للتركيب الحسابية . ينتابه الفزع حينما يفكر في تلك الأكداس الهائلة من الخلايا ، والإحساسات التى يتكون منها الفرد . . ومن ثم فإننا نحاول أن نصبق على هذا المحلوط، الأفكار التى ثبتت فائدتها في مملكة الطبيعة والكيمياء

والميكانيكيات . . كذا في النظم الفلسفية والدينية . ولكن مثل هذه المحاولة لا تلقى نجاحًا كبيرًا ، لأن أجسامها لا يمكن أن تختزل إلى نظام طبيعي - كيمائى ، أو إلى كيان روحى . دلتجيب إن على «علم الإنسان» أن يستخدم آراء جميع العلوم الأخرى ، ولكن عليه أيضًا أن يبنى آراءه الخاصة ، لأنه علم جوهري مثل علوم الخريئات والدرات والإلكترونيات

«صموة القول . أن التقدم الطلىء فى معرفة بى الإنسان - ذا قورن بالتقدم الرائع فى علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكا - يعزى إلى .

١ - حاجة أجدادنا إلى وقت فراغ

٢ - وإلى تعقد الموضوع .

٣ - وإلى تركيب عقولنا .

«وهذه اعقبات أساسية . وليس هناك أمل فى تدليلها . وسيظل التغلب عليها شاقًا يستلزم جهودًا مضنية . .

«إن معرفة نفوسنا لن تصل أبدًا إلى تلك المرتبة من الساطة المعبرة ، والتجرد، الخمال ، التى ملغها علم المادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفى العناصر التى أشرت تقدم علم الإنسان فعلنا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان «هو أصعب العلوم جميعًا» .

* * *

وهكذا يتصح من تقريرات هذا العالم الكبير ، الذى أتيحت له فرصة الاطلاع على نتائج السحوث الضخمة ، أن هناك فرقًا أساسيًا بين علوم المادة وعلوم الحياة وأن هالكى بالذات فارقًا أساسيًا بين طبيعة علوم المادة ، وطبيعة علم الإنسان ، وبين طبيعة موقف العقل من هذه وبلذ وأن هذا

اصدق كامن في أمرين ثابتين ، لا يتعمد بيئته ولا زمان ، ولا ظروف وقتية مرهونة بالزمان والمكان . هما :

١ - تعقد الموضوع .

٢ - طبيعة تركيب عقولنا .

وأن تقدم الإنسان في علوم المادة ، وإبداعه في العالم المادي ، وصحة بحوثه ونظرياته في ذلك الحقل ، لا تقتضي تقدمه في علم الإنسان ، ولا صحة بحوثه ونظرياته في هذا الحقل . وأن هذا الحقل غير ذاك في طبيعتهما أولاً ، ثم في مدى التقدم الذي وصل إليه الإنسان بانفعل ثانياً . ثم فيما ينتظر تقدم الإنسان في كليهما ثالثاً .

وأن « جهلنا مطبق » بالإنسان كما يقرر « العالم » الكبير



هذا الواقع « العلمي » عن « الجهل المطبق » بالإنسان - مع لعلم السببي بالمادة - نتيجة متوقعة ، وثمرة طبيعية ، لحقيقة دور الإنسان في الأرض ، وغاية وجوده الإنساني في الكون . كما تدو من خلال التصور الإسلامي . والإسلام يرتب على هذه الحقيقة نتائجها ، فيطلق يد الإنسان في عمارة الأرض ، واستخدم طاقاتها وخاماتها والتحليل فيها والتركيب ، والتحويل فيها والتعديل . بينما هو يصع لهذا الإنسان مسهب حياته ، لدى يحكم هذه الحياة ، ولا يكمل إليه هو وضع هذا المسهب . لأنه مرود بطاقات معينة ليتحكم في المادة عن علم - نسي طبعاً - بينما هو غير مرود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه . حتى يتحكم في أمرها عن علم كما يتحكم في مادة

والإنسان - في التصور الإسلامي - هو سيد هذه الأرض ، بخلافته فيها عن الله ، وكل ما فيها مسح به ، بقدره الله تعالى ، وقد أوتى إمكان العلم شئونها ، هبة من الله سبحانه ، والاستمتاع بطبيعتها وجمالها ، نعمة منه حالصة . وليست الأرض وحدها وكل ما فيها من أحياء وأشياء . . ولكن كذلك السماوات مهيأة لمساعدة الإنسان في خلافته في الأرض ، ومراعياً في بذلها دور الإنسان في هذه الخلافة . إنه أمر عظيم هائل . . ولكنه كذبت

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات . وهو بكل شيء عليم . وإذ قال ربك للملائكة . إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا . أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قل . إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال . أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا . سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال . يا آدم أسمهم بأسمائهم . فلما أنشأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم . إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تدرون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة . اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين . »

(لبقرة ٢٩ - ٣٤)

« لله الذي سحر لكم البحر لتحرى الفلك فيه بأمره ، وللبغوا من فضله ، ويعلمكم تشكرون . وسحر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

(الجاثية : ١٢ - ١٣)

«والأنعام خلقها لكم ، فيها دفءٌ ومنافع ، ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين يريحون وحين يسرحون وتحمّل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس ، إن ربكم لرؤوف رحيم والخيّل والبغال والحمير لتركبوها ، وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون وعى الله قصد السبيل . ومنها حائضٌ . ولو شاء لهداكم أحعين هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تُسِيمون يثبت لكم به الزرع والريّتون والسحب والأعشاب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وسحر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسحوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يدركون وهو الذى سحر البحر لتأكلوا منه حماً طرياً وتسبحرخوا منها حلية تنسوها ، وبرى الملك مواخير فيه ، ولتستعوا من فصله ، وعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلامات وبالحجم هم يهتدون»

(النحل : ٥ - ١٦)

ولكن هذا الإنسان - فى التصور الإسلامى كما هو فى الحقيقة - على كل ما أسودعه الله من أمانة الخلافة الكبرى فى هذا الملك العريض . وعلى كل ما سحر له من القوى والطاقات والأشياء والأحياء فيه ، وعلى كل ما أودعه هو فيه من طاقات المعرفة والاستعداد لإدراك الحوائج اللازمة له فى الخلافة من التواميس الكونية . . على كل هذا هو مخلوق ضعيف ، نعليه شهواته أحياناً ، ويحكمه هواه أحياناً ويقعده به ضعفه أحياناً ، ويلزمه جهله بنفسه فى كل حين . . ومن ثم لم يترك أمر نفسه ومنهجه فى الحياة لشهواته وهواه وضعفه وجهله ولكن أكمل الله عليه نعمته ورعايته ، فتولى به هذا الجانب ،

الذي يعلم - سبحانه - أن الإنسان لا يقدر عليه قدرته على المادة ، ولا يعلم بمقتضياته علمه بقوانين المادة .

وأول ما ظهر من ضعفه وعجزه وخصومه للإغراء ولشبهات ، ما يصوره القرآن الكريم من استسلامه لإغواء الشيطان له شهوة الخلد وشهوة الملك ، وسيبه أنه عدوه الذي يترصد به ، وسيباه كذلك تحذير الله له . وهو تصوير للحقيقة الخالدة في الإنسان - ما لم يعتصم بالله ومنهجه للحياة - وإلا فهو الشقاء والكدر في الحياة الدنيا وفي الحياة لأخرى :

«ولقد عهدت إلى آدم من قبل ، فنسى ولم يحذ له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تطعمها فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان : قال : يا آدم هن أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، ففتنتهما سواتهما ، وطفقا يحصفا علىهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم احساه ربه فتأب عليه وهدى . قال : امطأ منها جميعا ، نعصمكم بعص عدو ، فإما يأتىكم منى هدى . فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فته له معيشة حسك ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نحى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . »

(طه : ١١٥ - ١٢٧)

وتتواتر الإشارات على جهل الإنسان بأمر نفسه ومستقبله ومصيره ومآلات

أفعاله ، مع تأثره بالشهوات وبالهوى وبالضعف بحيث لا يصلح - بجهاته هذه وضعفه وهواه - لأن يتولى وضع مسيح حياته هو ، وإن كان مزودًا بالقدرة على استخدام المادة ، ومعرفة قوانينها اللازمة له في الخلافة . في إطار المنهج الذي رسمه الله لحياته . .

«ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .»

(الروم : ٦-٧)

«ويسألوك عن الروح . قل : الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» .

(الإسراء : ٨٥)

«وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير» . .

(لقمان . ٣٤)

«آباؤكم وأباؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نعمًا» . .

(النساء : ١٩٠)

«فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» .

(النساء : ١٢)

«وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» .

(البقرة : ٢١٦)

«لا تدري لمن الله يحدث بعد ذلك أمراً» .

(الطلاق : ١)

« إن يتبعوك إلا الضر وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم
إلهدي » . .

(النجم : ٢٣)

« وبوانع اخو أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .

(المؤمنون : ٧١)

« إن الإنسان خلق هلوعًا ، إذا مسه الشر جروعا ، وإذا مسه الخير
منوعًا » . . .

(المعارج : ١٩)

وعبر هذه الإشارات في القرآن كثير وهي تحيى - عالى - تعقنا
على اشتريعات والتوجيهات التي يسها الله للناس . ويحرمهم معها أنهم
لا يستطيعون أن يشرعوا لأنفسهم ، وليست لديهم القدرات والامتدادات
الضرورية لوضع منهج حياتهم هم أنفسهم ، لأنهم يجهلون أنفسهم ،
ويجهلون مآلات تصرفاتهم ورغباتهم ، ويخضعون لأهوائهم وشهواتهم . .
وكلها مؤثرات تجعل من الخطر على وجودهم ، وعن خط سيرهم في الحياة ، أن
يتولوا هم وضع شريعتهم وتخطيط منهج حياتهم الأصيل .

فجد هذه الإشارات في مثل هذه المناسبات

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا
يعلمون » .

(الحائية : ١٨٠)

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير
لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . .

(البقرة : ٥٦)

« يا أيها الدين آموا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ، ولا تعصلوهن لتهنوا بعض ما يتيتموهن - إلا أن يأتين بفاحشة مبينة - وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه حرمًا كثيرًا » . . . (النساء : ١٩)

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصر العدة ، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يجرحن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا »

(الطلاق : ١)

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . وإن كنت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك - إن كان له ولد - فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث . إن كان له إحوة ، فلأمه السدس - من بعد وصية يوصي بها أو دين - أبائكم وأنباؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعة . فريضة من الله . إن الله كان عليًا حكيمًا » . . .

(النساء : ١١)

كما نجد التنصيص القاطع والتشديد الحاسم - الذي لا يقبل المحال والجدال - على أنه لا يُسلم المسلم ، ولا يؤمن المؤمن ، حتى يجعل منهج الله للحياة منهجه ، وشريعة الله للحياة شريعته ، ولا يتخذ من عند نفسه لحياته منهجًا ولا شريعة - وإلا ادعى لنفسه - بهذا - حق الألوهية فكفر بالوهمية الله ، ورفض أفراد الله بالألوهية . وكفر معه كل من يقره على ادعاء حق الألوهية

لنفسه ، بادعاء حق التشريع من دون الله واتحاد منهج غير منهج الله للحياة
وتتوالى النصوص القاطعة المؤكدة لهذه القاعدة الأساسية في الإسلام على
هذا النحو :

« ألم تر إلى الذين يرغمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما تزل من قلبك يريدون
أن يحاكموا إلى الطاغوت^(١) - وقد أمروا أن يكفروا به - ويريد الشيطان أن
يضلهم ضلالاً بعيداً - وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ،
رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً - فكيف إذا أصابهم مصيبة بما قدمت
أيديهم ، ثم جاءوك يحتمون بالله إن أردنا إلا حسناً وتوفيقاً ؟ أولئك الذين
يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً
مليحاً - وما أرسلنا من رسول إلا ليطع بأذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم
جاءوك فاستغفروا الله واستغفرهم الله ووجدوا الله تواباً رحيماً . فلا
وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً . . . »

(النساء : ٦٠ : ٦٥)

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها السیون الذين أسدماوا - للدين
هادوا - والربانيون والأحرار . بما استخفطوا من كتاب الله وكنوا عليه شهداء ،
فلا تخشوا لساناً واحشوب ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً - ومن لم يحكم بما
أنزل الله فأولئك هم الكفرون . . . وكتسا عليهم فيها أن النفس بالنفس ولعين
بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، واللس باللس ، والجروح

(١) الطاغوت كل سلطان لا يستند إلى سلطان الله ، وكل وضع لا يجعل شريعة الله أساساً
لحياته

قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتاه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأمرنا إليث انكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه . . فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لحعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كسب فيه تحلفون . . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفعلم الجاهلية يعون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ . .

(المائدة : ٤٤ - ٥٠)

وفي هذا القدر كفاية لتقرير نظرية الإسلام في شأن «الإنسان» وتسليطه على عالم المادة ، وتسخير له ، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له في الخلافة . وفي الوقت ذاته تقرير عجزه عن معرفة ذاته بمثل هذا الوصوح الذي يعرف به نواميس المادة - وإعفائه - تبعاً لهذا - من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه ، وعون الله له بوضع منهج الملائم لكيانه ومطهرته ووظيفته في الأرض . ثم . . إلزامه باتباع منهج الله هذا ، وإخراجه من دائرة الإيمان والإسلام ، إذا هو لم يتخذ هذا المنهج ، أو إذا هو اتخذ لنفسه منه جانباً وابتدع

هو الجانب الآخر « واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم »
وانذاره بسوء الحال في الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك أو بعضه . «ومن أعرض
عن ذكرى فإن له معيشة صنگًا ، ونحشره يوم القيامة أعمى » . . .
(طه ١٢٤٠)

«فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » . . . (السقرة ٢٧٩)
وعيرها كثير .

ويعود بعد هذا الاستطراد في بيان وجهة نظر الإسلامية في حقيقة ما أعطى
الإنسان من الاستعداد لمعرفة وما لم يعط ، ومقتضيات هذا وذاك في حياته
يعود إلى عناصر المأساة التي تعانيها البشرية اليوم ، بتحدوها حضارة ومناهج
حياة ، قائمة على ذلك «الجهل المطلق» بالإنسان - كما يقرر «لعالم» العربي
الكبير - فنجد هذا الجهل المنطبق بالإنسان - إلى جانب المعرفة الواسعة بالمادة -
عنصرًا رئيسًا في هذه المأساة . لا لذته ولكن بسبب عدم الاعتبار به ،
ثم المضي معه في إقامة مناهج للحياة الشريفة ، في معزل عن هدى الله ، بل
في عداوة وإصرار على تحجب هدى الله ، وفي مرة منه كالتى يصورها القرآن
الكريم في قوله تعالى . في لهم عن التدبرة معرضين كأهم هم مستهرة فرت
من قسورة ؟! . . .

(المائدة ٤٩٠ - ٥١)

وهذا يقودنا إلى العصر الثانى من عناصر هذه المأساة كما رتبها في كلمة
الافتتاح . فلنحاول معاجه هذا العنصر الثانى . .

تخبط واضطراب

هذا 1 الجهل المطلق « بالإنسان الذي يتحدث عنه الدكتور « ألكسيس كاريل » ، في منتصف لقرن العشرين ، لابد أنه كان أعمق وأشمل فيما قبل هذا القرن ، وقبل أن نبذل تلك الجهود الضخمة في محاولة المعرفة ، وقبل أن يتحجج البحث إلى « الإنسان » وإلى علوم الإنسان

وهذا الجهل المطلق بالإنسان ، الذي ستبقى حوائب منه مهم بدل من الجهد ومهما تعددت حصول البحث ودرجاته ، نظرًا للصعوبات الذاتية الكامنة في تعقد موضوع الحياة من جهة ، وفي طبيعة عقولنا من جهة أخرى .

هذا الجهل كان وما يزال يقتضي أن يظل الإنسان لاصقًا بالله - سبحانه قريبًا منه ، متجنبًا إليه ، مهتديًا بمهجه الذي يضعه له عن علم وحكمة وألا يعترف بفتوحات العقل والعلم في عالم المادة ، ولا بمهارته في الإبداع المادي مهما بلغت قدرته ، ومهما فهم أنه أتى بالخوارق في هذا المجال - فيدفعه هذا الغرور إلى تطبيق محاولاته في عالم المادة على عالم الحياة . وبخاصة حياة الإنسان . وألا يفتنه هذا الغرور أيضًا ، فيحمله بمحاول أن يصنع لحياته ما يصنع مستنقعة عن مسجع الله بئله أن يكون معادية له ، شاردة عنه .

ولكن الذي وقع في أوروبا أولاً ، ثم عمت سوته الأرض كلها فيما بعد ، كان على لصد من هذا كله ، ومن ثم كان التخط ، وكانت الشقوة ، وكان

حط الدمار الذي تنحدر فيه البشرية إلى الهاوية في هذا الزمان ، وكانت هذه الأرملة ، الحادة التي يواجهها «وحدود» الإنسان .

إن هذا الإحلاص العلمي الذي يدفع رجلاً كالدكتور كاريل في منتصف القرن العشرين أن يقول : « وواقع الأمر أن جهلنا مطلق » لم يكن له مجال في الاندفاع العاتية التي اندفعت بها أوروبا في لشروء عن كل توجيه ديسي ذلك أن ملاسات بكدة وقعت بين الكنيسة هناك والعلماء ، جعلت الناس يشردون من ظل الكنيسة - ومن كل ظل للدين شروداً لا عقل فيه ولا وعي ، ولا مجال لتحكيم العقل والوعي ، ولا لسماح أية كلمة محبسة للتفرقة بين الدين في ذاته والكنيسة أولاً ، ثم بين قدرة الإنسان على العمل في عالم المادة وعجزه عن العمل في منهج حياة الإنسان أحياناً

وكان هذا الشرود أسبابه المفهومة في أوروبا . . . وإليك عنصراً واحداً من عناصره :

كانت مناهج البحث العلمي قد نشأت - في ظل الإسلام - في جامعات الأندلس والشرق كما يقول دوهرنج وبريهولت - وكانت أوروبا في انقراض الخامس عشر تنهل من هذه الجامعات ، وتعرف لأول مرة في تاريخها شيئاً عن هذه المناهج ، وشيئاً عن المذهب التجريبي (الذي عرف به فيما بعد روح بيكون وفرانسيس بيكون) والأول يعترف اعترافاً صريحاً بأنه اقتبس من « العالم الإسلامي » .

وفي هذا يقول دوهرنج :

« إن آراء روح بيكون في العلوم أصدق وأوضح من آراء سمييه المشهور (فرنسيس بيكون) » . ومن أين استقى روح بيكون ما حصله في العلوم ؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس والقسم الخامس من كتابه : (Opera majus)

(الذي خصصه للبحث في البصريات ، هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب
المناظر لأبن الهيثم ، وكتاب سيكون في حمدته شاهد نطق على تأثيره بابن حزم .
ويقول بريفولت في كتابه «بناء الإنسانية» (Making of Humanity) :
«إن روحه سيكون درس اللغة العربية ، ولعلم العربي ، والعلوم العربية
في مدرسة أكسفورد ، على حللاء معلمية العرب في الأندلس ، وليس بروجر
سيكون ولا سمييه لدى حاء بعده الحق في أن يسب إليها لفصل في ابتكار
لمنهج التجريبي . فلم يكن بروجر سيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج
الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم
معاصريه لغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق لوحيد لمعرفة الحق .
والمناقشات التي دارت حول واصعي المنهج التجريبي ، هي طرف من
التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية ، وقد كان منهج العرب
التجريبي في عصره سيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس ، في لهف ،
على تحصيله في ربوع أوروبا (ص ٢٠٢)

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث .
ولكن ثماره كانت بظيئة لضج . . إن العقيدة التي ولدت ثقافة العرب في
أسبانيا ، لم تنهض في عصفوها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك
الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذي أهدى أوروبا
الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت
بأكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية (ص ٢٠٢)

«إليه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من بواحي الازدهار الأوروبي
إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن
هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما نكون ، في نشأة تلك الطقوس التي

تكون ما للعلم الحديث من قوة متهايرة ثابتة ، وفي المصدر القوى لازدهاره . أى فى العلوم الطبيعية ، وهى روح البحث العلمى (ص ١٩٠) .

إن ما يدين به علما للعرب ليس فيها قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة . بل يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم - كما رأيت - لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند ليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجاً كبيراً بثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمذهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المراجع اليونانى . ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدها طليسى . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، بطرق التجربة ومقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوربي (ص ١٠٩) .

* * *

وعندما انتقل المنهج الإسلامى الواقعى التجريبي إلى لعقلية الأوروبية ، انجذب افكر العربى إلى السحوث العلمية استحرية . وبدأ البحث العلمى يكشف حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ، غير تلك لمجموعة من الأوهام والأساطير والخرافات التى تتساهل الكيسة وتعتبرها «حقائق مقدسة» وهى ليست من الصرنية فى شىء ، إنما هى مجرد أفكار - غير علمية - كانت شائعة

في تلك الأزمان - ولم يتزل بها كتب من عند الله - فتستنها الكنيسة ، ودفعت عنها بوصفها حرة من «العقيدة» .

ولقد وقفت الكنيسة وقفة عسدة في وجه هذا الاتجاه الجديد المستق من مسبع الثقافة الإسلامية في الأندلس وفي الشرق كذلك . وقابلت نتائج بحوث الطليعة من العلماء الأوروبيين الذين استقوا من ذلك السع ، بحفوة وعداء شديدين ، واستخدمت سلطاتها صدهم بوحشية كان من حرائرها ذلك الشرود من الكنيسة ، وصمًا من إلهها الذي تستطيل باسمه روزًا وبهتانًا ، ومن كل ضل للدين وللتوحى الدينى . فقد كان كل اعتراف أو خضوع للدين معناه الاعتراف والخضوع لهذا الطغيان الكنسى العشوم

وعندئذ كان ذلك الفصل لنكد بين الدين ولعلم حتى مطلع القرن العشرين في أوروبا ، وظل اندفاع الدس - والعلماء خاصة - في شرودهم الأبق عن لدين كله « كأهم هم مستفزة . فرت من قسورة » ولم يهدأ هذا الشرود - شيئًا ما - إلا في مطلع لقرن العشرين حيث جعل بعضهم يقف - ليلتقط أساسه اللاهثة ، وهو يحس بالخواء الروحى من آثار لرحلة المحمدة ، في التيه المقفر ، نحو أربعة قرون



وم ما - في هذا البحث المحمل - أر ستعرض بالتفصيل كل الملائسات والظروف ، اسى أحاطت بهذه الفصل النكد - في أوروبا - بين العلم والدين^(١) ، ولا أن نصف بالتفصيل كذلك تلك الرحلة الشاردة الطوية المحمدة في التيه المقفر ، ولا أن تصور بالتفصيل مدى اللأواء واشقوة التى

(١) يرجع بتوسيع في هذا الموضوع كتاب « المستقل لحد الدين » فصل «الفصل النكد»

عانتها البشرية كلها ، وهي تشرذم من الله ، وتتحدى على كل ظل للمهجة
للحياة وتعاذى هذا المهجع ، وتندع لنفسها - بجهلها المطبق - منهج من
عند أنفسها طوال هذه القرون .
ولكننا سنحاول فقط اختيار بعض المادح لتعطي البشرية في انتبه
الطويل .



إن الثمرة الطبيعية البديهة لجهلنا بحقيقة الإنسان - أو حتى عدم إدراكنا
كل جوانب هذه الحقيقة ، بفرض أننا وصلنا أو قد نصل إلى بعض حواهبها -
هي أن عاحرون عن وضع نظام شامل مضبوط صالح مصلح لحياته . وأن أي
نظام نضعه له من عند أنفسنا - بعيداً عن منهج الله - لابد أن يعرض الحياة
الإنسانية ، ويعرض الإنسان نفسه ، لنعطب والدمار ، في صورة من صور
لنعطب والدمار .

هذه بديهة ولكننا نؤثر أن نضعها في صورة عممية حسية واقعية
لنعرض أننا كنا نجهل قوانين المادة ، جهلنا بقوانين الحياة - والحياة الإنسانية
بصفة خاصة - ثم أردنا أن نتعامل - بجهلنا هذا الكلي أو الجزئي - مع المادة ؟
فما لدى كان يهع ؟ النتيجة معروفة . يقع أن تتلف المادة التي نتعامل معها -
كلياً أو جزئياً - إن لم نخطئها هذه المادة وتدمرنا . ومثل هذا قد حدث تماماً في
الحياة البشرية . .

ولكن التلف والدمار حين يقع في عالم المادة لا يشي آثاراً بصعب
تدركها ، ولا يحطم أشياء ثمينة عالية مثل « العنصر الإنساني » و« الحياة
الإنسانية » . ولا يتخلف منه ما تخلف عن محاولات علاج شؤون الإنسانية في

معزل عن خالقها العليم بحقيقتها ، الخير بالنواميس التي تحكم حياتها ،
واتصالاتها بهذا الكون الذي تعيش فيه ولا مثل ذلك التخطيط والشقاء والحيرة
والقلق ، والتلف وفساد ثم التهديد بالدمار الأخير في نهاية الخط
المشئوم . .

إن هذه الظواهر السكدة تتجلى الآن في كل جوانب الحياة البشرية وتبدو
معها التصحيحات لهائة ، والمذاح لرهسة ، والتقلبات العاتبة ، والشقوة التي
تسحق أئمن عناصر الكون . . « الإنسان » . .

وسنقف وقفات محملة أمام نماذج بعينها من تجارب البشرية الدائية - في
معزل عن هدى الله ومهجه للحياة - في تاريخ البشرية من القديم إلى
الحديث ، تشير إلى سائر المذاح منذ كان استقصاؤها متعذراً . فضلاً عن
أن طبيعة هذا البحث المجمل لا تختمله

هذه المذاح تناول المسائل الرئيسية الثلاثة في حياة الإنسان :

١ - مسألة النظرة إلى الإنسان وحقيقة فطرته واستعداداته .

٢ - مسألة النظرة إلى المرأة وعلاقات الجسدين .

٣ - مسألة النظم الاقتصادية والاجتماعية .

الإنسان وفطرته واستعداداته

« الإنسان » كائن فذ في هذا الكون فذ في طبيعته وتركيبه وفذ في وظيفته
وعاية وجوده . وفذ كذلك في مآله ومصيره . .

إبه مخلوق غير مكرر في جميع الخلائق التي عرفها ، والتي يحدثنا الله عنها
كذلك ولا نراها ومخلوق بقدر فلم يوحد هكذا مصادفة ولا حرفاً . ومخلوق

لعاية فلم يخلق عبثاً ولا سدى . وهذا واضح فيما يقده من الآيات القرآنية في
الفصل اسبق وفي نظرة الإسلام إلى الإنسان بحملتها

وتعبر الإنسان بخصائص لا توجد في عالم الأحياء هو الذي جعل «جوليان
هكسلي» في «الدروسيه الحديثة» يراجع عن الكثير من «الداروينية
القديمه»، التي فررها «داروين» وهو لا يراجع عنها إلا مصطراً أمام صعظ
الحقائق الواقعية التي تحكم هذا التراجع إذ يعترف بأن الإنسان «حيوان
خاص» وأنه له «خصائص» لم تلاحظ في أي حيوان آخر وأن هذه الخصائص
أثارت متعردة كذلك

ولدعه هو يتكلم في فصل من كتابه «الإنسان في العالم الحديث» بعنوان
«تفرد الإنسان»

«لقد تراجح رأي الإنسان كخطر (السدول) فيما يتعلق بمركبه بالسنه
لنقية الحيوانات، بين إعجابه الشديد أو انقراض نفسه تفصل به وبين
الحيوانات هوة سحقه حدًا وحيثًا آخر هوة صغيرة حدًا.

«ويظهر نظرية «داروين» بدأ خطر (السدول) بأرجح عكسيًا،
واعتر الإنسان حيوانًا مرة أخرى ووصل الخطر شيئًا فشيئًا إلى أقصى مدى
تأرجحه، وظهر ما بدا أنه النتائج المطفقة لفروض «داروين» والإنسان
«حيوان» كعبره من الحيوانات وبذلك فإن راءه في معنى الحياة الإنسانية،
ومثل لعيب، لا يستحق تفسيرًا أكثر من راء الدوده لشريطيه أو بكتريا
الماشلس واللقاء هو لمقياس توحيد للمحتاج انتطوري ولذلك فكل
لكائنات حيه متساوية اقيمه ونيسف فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية ومن
المسلم به أن الإنسان في لوقت الحاضر سيد لمخلوقات ولكن قد تحل محله
القطه أو القار

« ولم تصغر الهوة هما بين الإنسان والحيوان ، نتيجة الداعة في إعطاء
لحيوان صفات الإنسان ، وفي نتيجة التقليل من الصفات الإنسانية في
الإنسان . ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، سببه في الغالب
ريادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي

« إن الحصار بأرأح ثانية وتوسع الهوة بين الإنسان وحيوان مرة أخرى
و بعد نظرية « داروين » لم يعد « الإنسان » يستطيع بحسب اعتباره نفسه
حيواناً^(١) ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً عريضاً جداً وفي حالات كثيرة لا مثيل
له وتحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية لم يطلع قواعده بعد وما هذا المقلد
إلا محاولة لعرض مركزه الحالي

« وأول خصائص الإنسان القدة ، وأعظمها وضوحاً ، قدرته على التفكير
التصورى^(٢) وقد كان لهذه الخاصية الأساس في الإنسان نتائج كثيرة
وكان أهمها نمو النقص المترادة^(٣) ومن أهم نتائج يزيد التقاليد - أو إذا
شئت من أهم مظهره الخفية - ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من
عدد وآلات وإن العدد ولتقاليد هي الخواص التي هيأت للإنسان مركز
لسيادة بين سائر الكائنات الحية وهذه السادة « البيولوجية » - في الوقت
الحاضر - خاصية أخرى من خواص الإنسان القدة .

(١) هذا مجرد رأي شكلي بوصفه « داروين » وهو طبقاً لغير علمه أن يرجع عن فروض
داروين كله أمام صاعد الحقائق الجديدة ، ولكنه يرجع بالعلم وهو ساعد بأن شئت
على تصور نظريته^(١) والإنسان كحوي الكيان الحيواني من الناحية العضوية ولكنه ليس
حيواناً بالمعنى الذي تقوله الداروينية

(٢) التحليل

(٣) السادة من رصيد الحاروب الإنسانية

« . وهكذا يصعب علم الحياة «الإنسان» في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسند المخلوقات . . كما تقول الأديان ^(١) .

« ولقد أدى الكلام والتقليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى ، ومعظمها واضح معروف .

« والإنسان لا مثيل له أيضًا كنوع مسيطر . إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة على مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة ، وتجمعت في أجناس وفصائل عديدة ، ومجموعات أكبر . أما الإنسان فقد حافظ عن سببته من غير انقسام . ولقد تم تنوع سلالات الإنسان في حدود نوع واحد

« وأخيرًا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقه تطوره .

« وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره . ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الإنسان في تطوره . وأن خاصية الإنسان الجوهرية ككثير من مسيطر فهي «التفكير المعنوي»

« ولقد كن بحثنا حتى الآن بطريقة عامة في خصائص الإنسان من ناحية التطور والمقارنة . والآن نعود إليها ، ونبحث فيها وفي نتائجها بشيء من الإسهاب . . فأولاً يجب ألا يغرب عن بال ، أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما نطن عادة . وكلنا على علم بقوة العريضة في الحشرات . ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة . وليست لشدياب بأفضل من ذلك . سيما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى حتى

(١) بعد اعتراف هكسلي هكذا عار لسترد مرقفه ، هناك إن النظرية الدسبة لم تكن صحيحة في تفصيلها أو في كثير مما تضمنته . ثم أرعمته الحقائق مرة أخرى فحتم هذا الراجع بقره « ولكن كان له أساس حيولوجي صير » وهكذا يبرأرجح بين صمط الحقائق وبين مقضيات الإخاد والندية ا

عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ ولا بد أن يكون سلوك الحيوانات عرفتاً - أى أنه ثابت في حدود ضيقة - أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حرّاً نسبياً . حرّاً في الأخذ والعطاء على حد سواء . وهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية . والإنسان أيضاً يريد في بعضها . فقد أدت هذه المرونة مثلاً إلى كون الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا بد له أن يعرض لمصراع انفسى . . ومع ذلك مطبقاً للأراء الحديثة توجد في « الإنسان » أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهى التى يعرفها علماء النفس بالكبت وانقمع .

« وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان ، والتى يمكن تسميتها « نفسية » أكثر منها « بيولوجية » تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

« الأولى » قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية » التوحيد السيسى لعملياته العقلية . يعكس تقسام العفص والسلوك عند الحيوان

« الثالثة » وحد لوحداث الاجتماعية مثل القبيلة ولأمة والحرب واجتماع الدينية ، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة لإنسان^(١) وهى بلا شك فريدة من الناحية لبيولوجية . وليذكر منها العلوم رياضية البحة والمواهب الموسيقية ، والتقدير والإبداع العيين ، والدين ، والحب المثالى . .

(١) نحن نعرض هكسى كما هى - بعض اسطر عما نحاوله هه فى شأة الإنسان

« ولكن لا يكفي هذا أن نحصى بعض أوجه نشاط . . ففي الحقيقة أن معظم أوجه النشاط الإنساني وخواصه ، نتائج ثانوية لخواصه الأساسية . وكذلك فهي فذة من البحية لسيوحية . وقد يكون تنفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد . .

« وبذلك يكون الإنسان فريداً في أحواله أكثر مما نطن الآن »^(١)

كذلك يقول العالم الأمريكي « أ كريسى موريسون » في كتابه ' Man does not sand alone ' لدى ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح ، ملكى بعنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » .

« إن القائدين نظرية انطور (الشوء و لارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة (الجينات) . (ص ١٤٥)

« لقد رأينا أن « الجينات » متفق على كونها تنطيات أصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع لكائنات الحية . وهى تحفظ التصميم ، وسجل السف ، والخواص التى لكل شىء حى . وهى تتحكم تفصيلاً في لحدز والحدع والورق والزهو واشمر لكل نبات ، سماء كما تقرر الشكل والقشر والشعر والأجحة لكل حيوان ، فيه الإنسان » (ص ١٤٧) .

« ويلاحظ أن جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها . حتى إن الحيوانات المتقاربة بفصل بعضها عن بعض كذلك » .

« والإنسان حيوان من رتبة الطليعة ، وتكوينه يشبه فصائل « السيمبا »

(١) من كتاب « الإنسان في العالم الحديث » ترجمة حسن خطاب مقتطعات مترجمة

(الأوراجتان والعوريل والشمبىرى) ولكن هذا الشبه الهيكلى ليس بالضرورة
برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيائية (من القرد) أو أن تلك القرد
هى ذرية مسحطة للإنسان . ولا يمكن أحد أن يزعم أن سمك القد (Cod)
قد تطور من سمك الحساس (Haddock) وإن يكن كلاهما يسكن المياه
نفسها ، ويأكل الطعام نفسه ، ولهما عظام تكاد تكون متشابهة .
(ص ١٤٢)

« إن ارتقاء الإنسان الحيوانى إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة
أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى ، ودون قصد ابتداعى .
« وإذا قلت واقعية القصد ، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً
ولكن ما الذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدرك ، لا فائدة منه والعلم
لا يعمل من يتولى إدارته . وكذلك لا يزعم أنه مادى .
« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قياساً
من نور . ولا يرال الإنسان فى طور صفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر
بوجود ما يسميه بـ « الروح » وهو يرقى فى بطنه ليدرك هذه الهبة ، ويشعر
بعزيمته أنها حادثة .

« وإذا صح هذا التعليل - ويبدو أن المنطق الذى يسده لا يمكن دحضه -
فإن هذه فكرة الأرضية ، الصغيرة التى لنا ، وربما غيرها كذلك ، تكسب أهمية
م يحلم بها أحد من قبل . فعلى قدر ما نعلم قد تولد عن عالمنا الصغير هذا ،
أول جهاز مادى أصيف إليه قس من نور الله . وهذا يرفع الإنسان من مرتبة
لعريضة الحيوانية إلى درجة القدرة على التفكير ، حتى يمكن به الآن أن يدرك
عظمة لكونه فى اشتباكات ، ويشعر شعوراً عامصاً بعظمة الله ماثلة فى حلقه
(ص ١٨٧-١٨٨) .

« إن أية ذرة أو حرثية (Atom, Molecule) لم يكن لها فكر قط ، وأى اتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأى أبداً وأى قانون طبيعي لم يستطع بناء كاندراثية . ولكن كثافات حبة معينة قد حلفت تنعاً لحوفر معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنظم شيئاً تطيعه جزئيات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما يراه من عجائب العالم فما هو هذا الكائن الخفى ؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزئيات ؟ أجل . وماذا أيضاً ؟ شىء غير ملموس ، أعلى كثيراً من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شىء . ويختلف جداً عن كل ما هو مادي مما صبح منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو - فيما نعلم - ليست له قوانين تحكمه . إن الروح الإنسان هى سيادة مصيره ، ولكنها تشعر بصحتها بالمصدر الأعلى لوجودها . وقد أوحدت للإنسان قبولاً للأحلاق لا يملكه أى حيوان آخر ، ولا يحتاج إليه . فإذا سمي أحد ذلك لكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة ، لا لشىء سوى أنه لا يعرف كنهه بأبوية الاحتبار ، فهو إنما يرعم رعماً لا يقوم عليه برهان . إنه شىء موجود ، يظهر نفسه بأعماله ، وتتصحياته ، وبسيطرتة على المادة ، وبالأخص بصيرته على رفع الإنسان المادى من ضعف الشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله . هذه هى خلاصة القصد الربانى . وفيه تفسير للاشتياق الكامن في نفس الإنسان ، بالاتصال بأشياء أعلى من نفسه . وفيها كشف عن أساس حافره الدينى . . هذا هو الدين » . . (ص ٢٠١-٢٠٢) .

وتفرد الإنسان في هذا الكون بطبيعته وتركيبه ، وفي وظيفته وعاية وجوده ، وفي مآله ومصيره ، هو الذى يقرره التصور الإسلامى عن الإنسان في نصوصه الكثيرة ، فكدها تقرر أن هذا الإنسان ، خلق حلقة فدة خاصة مقصودة ، وعييت له وظيفة ، وجعلت لوحودة عاية ، وأنه كذلك مبتلى بالحياة مختبر

فيها ، محاسبٌ في النهاية على سلوكه فيها ، هذا السلوك الذي يقرر جزاءه ومصيره . .

سجد هذا في قصة آدم :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . الآية »

(البقرة . ٣٠)

« إذ قال ربك للملائكة إني جاعل بشراً من طين فإذا سويته وبعثت فيه

من روحي فقعوا له ساجدين » . . . (ص . ٧١ - ٧٢)

« ولقد كرمت بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ،

وفصلناهم على كثير ممن خلقنا تفصيلاً » . . (الإسراء : ٧٠)

« لمد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » . . (التين : ٤)

وبعده في بصوص شتى :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦)

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » . .

(الملك : ٢)

« فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له

معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى » . . . (طه : ١٢٣ - ١٢٤)

* * *

والإنسان كائن معقد شديد العقيد سواء في تركيبه العضوي ، أو تركيبه

العقلي والروحي ، كما هو معقد في أوجه نشاطه المختلفة ، التي لا يعرف أحد

حتى اليوم طبيعتها ، ولا حقيقة الارتباطات بينها ، إذ كن ما أمكن هو

ملاحظة طواهرها وسطوحها .

وهذا التعقيد لا يبدو في كيان الإنسان ككل محسب ، بل إنه ليتجلى

كذلك في كل خلية حية من خلاياه التي لا تحصى .

وإلى هذه اللحظة لم يكشف أحد سر تكوين الخلية وحتى لو تسمى كشف عناصر تكوينها المادي ، فإن عصر الحياة الذي فيها مجهول الكنه والكيفية . ويبدو أنه سيظل كذلك . ولست هذه سوى الخطوة الأولى في الطريق الطويل لمعرفة أسرار الخلية الحية . إن هذه الخلية تتصرف كما لو كانت كائناً عاقلاً رشيداً يدرك تماماً وظيفته المقلدة ، كما يدرك دوره مع بقية الخلايا ، ويمضي في طريقه مهتدياً لا يضل أبداً ، لأداء دوره هذا ، في دقة وإصابة لا يتمتع بها لعفن الشرى ذاته ! .

وعن هذه الأسرار ، وأسرار الارتباطات بين مركبات الكائن البشري ووظائفه وأوجه نشاطه المختلفة يقول الدكتور « ألكسيس كاريل » ما سبق أن صدرنا به الفصل الأول . وم بعيداً عما فقرات منه لضرورة وضعها تحت العين في هذه اللحظة :

« واقع الأمر أن جهلنا مطبق فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون اجس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك ماطق غير محددة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة . فحسن لا يعرف الآن الإجابة عن أسئلة كثيرة مثل :

« كيف تتحد حرثات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

« كيف تقرر الخيس (باقلاات الوراثة) الموحودة في نواه البويضة الملفحة صمات الفرد المشتقة من هذه لبويضة ؟

« كيف تنتظم الخلايا في جمعات من تلقاء أنفسها ، مثل الأسجة والأعضاء ؟ فهي كالمس والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في

حياء المجموع . وساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط
معقد في الوقت ذاته

« ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسولوجي ؟ إننا نعرف أننا مركب من
الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور ولكن العلاقات بين الشعور والمخ
مارالت لعمراً .

« إننا ما رلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا
العصبية . إلى أى مدى تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة
الأعضاء ؟ على أى وجه تستطيع الخصائص لعضوية والعقلية ، التي يرثها
كل فرد أن تنغير بواسطة الحياة والمواد الكيميائية الموحدة في الطعام والمخ
والنظم النفسية والأدوية ؟ المخ المخ » .

وهذا التعقيد في تركيب الكائن الإنساني ، وفي وظائفه وأوجه نشاطه ، هو
الذي يتسق مع ضخامة وتشعب وظيفته الأساسية في خلافة هذه الأرض ، كما
أنه هو الذي يتسق مع طبيعة نشأته التي حدثنا الله عنها

« إء قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فءدا سويته ونفخت
فيه من روعي ففعواله ساحدين » . (ص ٧١٠ - ٧٢)

فالكسوة التي تسبق ابتداء من الطين والصفحة من روح الله - على ما سها
من آمد وآفاق لا تحد - هي التي يتوقع فيها مثل هذا التعقيد لشديد ، الذي
يستعصى على اعهل الشرى ، لأنه فوقه وأكبر منه . على حين أنه يسير يسير
على الله سبحانه :

« هو أعلم بكم إء أنشأكم من الأرض ، وإء أنتم أحمة في مطون
أمهاتكم » . . . (الحجم : ٣٢)

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » (الملك : ١٤٠)

« ولقد خلقنا الإنسان وعلم ما توسوس به نفسه ، ونحى أقرب إليه من
حبلى الرريد » . . . (ق : ١٦)



والإنسان - بعد هذا وذلك - كائن يؤلف كل فرد فيه بذاته عالماً فذاً مفرداً
لامثيل له فى سائر أفرادہ على كل ما يجمع أفراد اخس كله من الخصائص
« الإنسانية » المشتركة . . وهذا مما يريد الأمر تعقيداً ، ويزيد دراسه « الإنسان »
صعوبة ، بل تعذراً ، دوى المعرفة الكامنة بالسمات المميزة لكل فرد على حدة -
فى فردية المتميزة - على فرض أنه أمكن الوصول - فى ملايين السنين - إلى معرفة
كل التركيب العصورى والنفسى العام للجنس البشرى .
وفى هذه الفردية يقول دكتور . كاريل :

« إن الفردية جوهرية فى الإنسان . إنها ليست مجرد جانب معين من
الجسم ، إذ انها تنفذ إلى كيانه . . وهى تجعل « البذات » حدثاً فريداً فى تاريخ
العالم . إنها تطبع الجسم والشعور كما تطبع كل مركب فى الكل بطابعها
الخاص وإن طلب غير منظورة » . . . (ص ٢٨١)

« يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوهم
وإشارات وطريقتهم فى المشى ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة . ومع أن
الزمن يحدث تغييرات كثيرة فى مطهر الأفراد ، إلا أنه يمكن دائماً معرفة كل فرد
- كما أثبت برتلون منذ أمد بعيد - بواسطة أبعاد أجراء معينة من هيكله . .
وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع محيرات فاطعة للفرد ومن ثم فإن
بصمات الأصابع هى التوقيع الحقيقى للإنسان » . . (ص : ٢٨٢)
« وعلى كل حال فإن تكوين الجلد جانب واحد فقط من فردية الأنسجة » .

وقد تظهر فردية الأنسجة نفسها بالطريقة التالية :

« طعم سطح جرح بقطع من الجلد ، أخذ بعضها من المريض نفسه ،
والعضر الآخر من صديق أو قريب فلو حظ بعد أيام قليلة أن الجلد الذى
أخذ من المريض نفسه قد تماسك مع الجرح ، وبدأ يئمو ، فى حين أن الجلد
الذى أخذ من الأشخاص الآخرين أخذ فى التراخى والانكماش وسرعان ما
عاش الأول ومات الثانى » . . . (ص : ٢٨٣)

« إن القاعدة أن أسحة أى شخص ترفض قبول أسحة شخص آخر .
وحينئذ تحيط ، لأوعية ، ويمر الدم ثانية فى كمية مطعنة ، فإن هذا العضو يفرز
البول مباشرة ، ويكون تصرفه طبيعياً فى بادئ الأمر إلا أنه لا تكاد تمضى
أسابيع قليلة حتى يصهر الرلال أولاً ، ثم الدم فى البول ، وسرعان ما نصاب
الكبد بمرض أشبه بالالتهاب يؤدي إلى صمور الكبدية سريعاً ومع ذلك لو
أن العضو المطعم أخذ من الحيوان نفسه لعاد إلى تأديه وطيفته بصفة دائمة إذ
من الواضح أن الأحلاط تكتشف فى الأنسجة العريية ، اختلافات تركيبية
معينة ، لا يمكن اكتشافها بأى اختبار آخر إن الخلايا محددة بالنسبة
للأشخاص الذين تتعهم ولقد حالت هذه الخاصية حتى الآن دون التوسع
فى استعمال تطعيم أو ترقيع الأعضاء لأغراض علاجية » . . . (ص ٢٨٣)
« ومن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين الملايين من البشر الذين
استوطنوا هذه الأرض ، كان تركيبهم الكيماوى متماثلاً . وترتبط شخصية
الأسجة التى تدخل فى تركيب الخلايا والأحلاط بطريقة ما زالت غير معروفة
حتى الآن . ومن ثم فإن فردين تتأصل جذورها فى أعماق دائنا .

« وتطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة فهى موجودة فى العمليات
الفسيولوجية كما هى موجودة فى التركيب الكيماوى للأحلاط والخلايا وهذا
فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجى مع

المضوضاء والخطر والطعام والبرد ، وهجمات الميكروبات والفيروسات » .

(ص ٢٨٦) .

« نمتزج المرديات العقلية والتركيبية والأحلاطية بطريقة غير معروفة . وتحمل كل منها للأخرى العلاقات نفسها التي تحملها وحده الشاطئ ، الفسيولوجي ، والعمليات المخية والوظائف العصبية . إنها تهنا وحدانيته ونجعل كل إنسان أن يكون نفسه ، وليس شخصاً آخر » (ص ٢٨٧)

« كل فرد يدرك أنه مريد . وهذه ابوحداية حقيقية » (ص ٢٨٩)

« إن فحص المردية الفسيولوجية محضاً كاملاً ، وقياس أحرانها المركبة غير ميسور حتى الآن ، كما أننا لا نستطيع تحديد طبيعتها بالدفعة ، وكيف يختلف كل فرد عن الآخر . بل إننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه ، فضلاً عن أننا أكثر عجزاً عن اكتشاف امكانياته » . . . (ص ٢٩٠)

« وحقيقة الأمر أن اسيكولوجيا لم تصح بعد علمي لأن المردية وإمكانياتها ليست قابلة للقياس حتى الآن » . . (ص ٢٩١)

* * *

هذه الحقائق الأساسية لثلاثة حقيقة أن الإنسان كائن هذا الكون . وحقيقة أن الإنسان كائن معقد شديد التعقيد . وحقيقة أن الإنسان يشتمل على عوالم متفردة عددها عدد أفراد .

هذه الحقائق تقتضي منهجاً للحياة الإنسانية يرعى تلك الاعتبارات كلها . ويرعى تفرد « الإنسان » في طبيعته وتركيبه . وتفرده في وظيفته وعاية وجوده ، وتفرده في مآله ومصيره . كما يرعى تعقده الشديد وتنوع أوجه نشاطه وتعقد الانسلاط يسها . ثم يرعى « فرديته » هذه مع حياته « الجماعية »

وبعد هذا كله يصمن له أن يراول وجوه نشاطه كلها ، وفق طاقاته كلها

بحيث لا يسحق ولا يكبت ، كما لا يسرف ولا يهرط . وبحيث لا يدع طاقه
تطعى على طاقة ، ولا وظيفة تطعى على وظيفة . . ثم - فى النهاية - يسمح
لكن فرد بمراولة فردته الأصلية مع كونه عضواً فى جماعة . .

ولكن - نظراً لجهالتنا بالإنسن - فإن مباح الحياة التى اتخذها الشر
لأنفسهم لم نستطع - وهذا طبيعى - مراعاة هذه الاعتبارات المتشعبة المتشابكة
المتفاوتة المتناسقة . .

ولمهج الوحيد الذى راعى هذه لاعتبارات كلها كن هو المنهج الذى
وضعه للإنسان خالفه ، العيم تكوينه وفطرته ، الخير بطاقاته ووطائمه ،
القادر على أن يصع به المهج الذى يحقق عاية وجوده ويحقق التوازن فى أوجه
نشاطه ، ويحقق فرديته وجماعيته كذلك . .

وما من شك أن لأمر من الدقة والخطورة والتشكك ولتعقد بحيث يحتاج
إلى عدم إله ، وحكمة إله ، وأنه - من ثم - لا يصعه إلا الله^(١)
فلسطر لأن نظرة سريعة إلى تقلب نظرة الإنسان لنفسه ، وتخطئه كذلك
بنفسه ، حين استقل بأمر نفسه بعيداً عن هدى الله ، واتع هواه . .

* * *

فى الأساطير الإغريقية كن « الإنسان » بذا بالآلهة . ينازعها السلطة
والمعرفة ، وإن كانت هى تمطش به وتقسو عليه ويكنه هو لا يستسبم ولا
يدعز . وحتى فى حالة انتصارها عليه ، فإنه يستفى فى نفسه السخط
والإنكار والإصرار !

(١) عما حب هذا الموضوع تتوسع فى فصل « حقيقة الإنسان » فى كتاب « خصائص التصور
الإسلامى ومقوماته » وفصل « نظام إنسانى » فى كتاب « بحور مجمع إسلامى »

فلما جاء العهد الرومى - ونبدأ به باعتباره الأساس الحقيقى للحضارة الأوروبية القائمة - بهت ظل الآلهة ، وبقي الإنسان يعد ذاته وشهواته . وهو على كل حال لم يكن يسمح للآلهة بالتدخل فى نصريف حياته الأرضية . وإن كان يسمح لها بالتكهن على ألسنة الكهان ، ويستبقيها كعرف اجتماعى لا ضرر منه ، ويستمتع بمناهج الاحتفالات بمواسمها فى طلاقة من كل قيد على طريقة الرومان فى المتاع .

ولما سيطرت لصرانية - كما تصورتها الكنيسة - على الدولة الرومانية ، وُسم الإنسان بالخطيئة ، ونكس رأسه بالذل . وبدأ ذلك فى التماثيل التى أنشئت فى ظل هذه لِنظرة إلى الإنسان ، كما بدأ فى سواها من وسائل التعبير . ومع أن لِنظرة الصراية إلى الإنسان تحمى تكريم الله لهذا الجنس ، إلا أن خطيئة آدم - كما تصورها الكنيسة - قد دمغت الجنس كله بالإثم حتى جاء المحلّص « ابن الإنسان » « المسيح » « الرب » « الابن » . إلى آخره فكثّر عن هذه الخطيئة . ولكن هذا لم يرفع جبين لإنسان ، فقد كان عليه أن يكفر بالذل والهووان ولتقشف والعداوت طواو حياته ، لكي يلحق بالمحلّص ، ويتحدّ فيه ، ويبال العمران .

وكذلك اعتبرت ميوله الفطرية رجساً ودنساً ، وعلاقاته الجنسية قدراً ووسحاً ، وشعوره بداته إنثياً وخطيئة . وكان من وراء هذه النظرة ما سفسله بعد قليل من الرهبة ، ورد الفعل للرهبنة فى أوروبا التى لم تستقر على حال . ولما وقع رد الفعل ، وثارت أوروبا عى الكنيسة ، وعلى التصورات الكنسية ، وعى المفهومات الدينية كلها بالإحمال ، جدّت مع الثورة نظرة جديدة للإنسان وبالذات إلى « العقل » فى الإنسان .

« لقد جعل هذا « العقل » إنثياً فى « عصر التنوير » فى منتصف القرن الثامن

عشر الميلادى ، فهذا العالم الخارجى إنما هو من خلق العقل وصنعه . وللعقل حق السيطرة على كل جوانب الحياة ، ولقطع فيها برأيه الذى يراه . ولإنسان - من ثم - حر فى العمل حرية تامة ، لا يشومها تحديد من غير الإنسان نفسه . . وبهذا انتهى عصر تدخل الدين فى الحياة

ثم انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر وابتدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة لهذا العقل وللإنسان معه . إذ جاءت « الفلسفة الوضعية » تعلن أن المادة هى الإله ! فهى التى تنشئ هذا العقل ، وهى التى تطيع فى حس الإنسان ما تراه !

بدلت تضائل العقل ، وتضائل معه « الإنسان » لم يعد هذا الإنسان إله نفسه ، ولا إله شئ من الأشياء ، إنما أصبح من محالين « الطبيعة » ومن عبيد هذا « الإله » !

ثم جاء « داروين » بـ « بحوثه » الإنسان حيث نشر كتابه « أصل الأنواع » فى سنة ١٨٥٩ ، وكتابه « أصل الإنسان » فى سنة ١٨٧١

وفقد الإنسان كل ما كان التصور الدينى قد أسعاه عليه من كبريم وفرد وخصوصية كما فقد كل ما كانت الفلسفة قد خلعتة عليه فى عصر التنوير من بحاسة واستقلال وسيطرة وعاد حيواناً - ككل حيوان آخر - ولو أنه به السيطرة اليوم ، فإن هذه السيطرة قد تؤرق إلى قط أو فأر فى يوم من الأيام كما يحكى حوليان هكسلى !

ثم تمت اصرة القاصمة على يد « فرويد » من جانب ، و « كارل ماركس » من الجانب الآخر . الأول يرد دوافع الإنسان كلها إلى الميول الجنسية ، ويصوره عارفاً فى وحل الخس إلى لأدقن ، والثانى يرد تطورات التاريخ كلها إلى لاقتصاد ، و يصور الإنسان مخلوقاً ضئيلاً سلباً ،

لا حول له ولا قوة أمام إله الاقتصاد بل إله أداة الإنتاج !

* * *

وكذلك جاء التخط في النظرة إلى سلوك الإنسان تجاه ميوله الفطرية ، واستعداداته وطاقاته ، وتجاه الأخلاق المرضية من المجمع ، والتي تطع سلوك الأفراد في شتى المجتمعات .

لقد ظلت أوروبا تتراوح بين الإفراط والتعريط بين الكسب والتهور . بين سحق الميول الفطرية والطاقات الطبيعية في الإنسان أو إطلاقها بعير عنان . ولم تلتزم جمادة الاعتدال أبدًا في تاريخها الطويل . ولم يقع التوازن في تصوراتها ولا في حياتها تبعًا لذلك في وقت من الأوقات . .

ونبدأ بملاحظة وقع أوروبا - في هذا الجانب - منذ أيام الدولة الرومانية يصور « درابر » الأمريكي في كتابه « الدين والعلم » حالة الدولة الرومانية قبيل دحولها في النصرانية هذه الصورة البارعة

« ولما بلغت الدولة الرومانية في اقوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهديد إلى أسفل الدرجات . نظر الرومان معيشتهم ، وأحلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتارًا وكد مدوهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ، يتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن هو إلى لذة ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان ، إلا ليعث على شهوة الطعام ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر للذة . كانت موائلهم ترهو بأواشي الذهب والفضة مرصعة بالخواهر ، ويحتف بهم حدام في ملابس حميلة حلالة ، وغادات رومية حسان ، وغوان كاسات عاريات ، غير متعففات ، تدل

دلالة . ويرهو في نعيمهم حمامات مباحة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأنطال مع الأنطال أو مع السباع ، ولا يزالون بصارعون حتى يجر الواحد منهم صريعاً تشحط في دمه . وقد أدرك هؤلاء الفتحون الدين دوحوا العالم ، أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة لأنه ما يقدر الإنسان على أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها يعرفون الحيين وكذا اليمين . وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحيث يمكن أن يصادر الأموال والأموال ، ويعين إيرادات الإقطاع . وأن رأس الدولة الرومانية هو رمز هذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المديني يشف عن أسفه الملك . ولكنه كان طلاء خداعاً ، كالذي نراه في حصارة النوبال في عهد انحطاطها ^(١) .

ويصف الأستاذ أبو الأعلى المودودي حالة المجتمع الروماني في هذه الفترة يقول .

« وما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا الحد ، اندفع تار من العرى والفواحش وجرح الشهوات . فأصبحت المسارح مطهر للحلاعة والترج الممنوت والعرى لمشين . وريت البيوت بصور ورسوم كنها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء . ومن جراء ذلك راحت مهنة المؤسسات والداعرات . وانجذبت إليها نساء البيوتات . وتماذى الأمر في ذلك إلى أن اضطرت القرم إلى وضع قانون حاص في عهد القيصر « تاني بريس » (١٤ - ٣٧ م) لمنع نساء البيوتات من احتراف مهنة المؤسسات

(١) نقلا عن كتاب « ماذا حصر العالم انحطاط المسلمين » لـ سيد أبي الحسن الحسني المدوني ص ١٣٩ ، ١٤٠ من الطبعة الثانية

وصناعتهم الدافقة . ونالت مسرحية « فلور Flora » حظوة عظيمة لدى الروم ،
 لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال
 والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد أما سرد لمقالات لخليعة ،
 والقصاص المأجنة ايعارية فكان شعلاً مرصياً مقبولاً لا يتحرج منه أحد ، بل
 الأدب الذي كان يتقاه الناس بالقول والرضى هو الذي يعبر عنه اليوم بالأدب
 المكشوف . وهو الذي يتبين فيه أحوال الحب والعاق والتفيل مسافره ، غير
 مقنعة بحجب من المحار والكنيات « (١) » .

ثم حدث أن استطاعت النصرانية - كما شكلها بوس - أن تمسك بزمام
 الدولة الرومانية ، وأن تولى الإمبراطور قسطنطين في سنة ٣٠٥ ميلادية ، وأن
 تصبح لها الكلمة العليا في الإمبراطورية الرومانية المتراامية الأطراف . فما الذي
 حدث ؟

حدث ما يصوره درابر بقوله :

« دخلت اوثية والشرك في النصرانية بتأثير المافقين الذين تقلدوا وطائف
 خطيرة ، ومنصب عالية في الدولة الرومانية تتظاهروهم بالنصرانية ، ولم يكونوا
 يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام وكذلك كان قسطنطين
 فقد قضى عمره في الظلم والعجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الديسية إلا قليلاً
 في آخر عمره (٣٣٧ م) .

« إن اجماعة النصرانية . وإن كانت قد بلغت من لقوة بحيث ولّت
 قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر اوثية وتقتلع

(٢) كتاب « الحجاب » للسيد « أبو الأعلى المودودي » ترجمة لعربية للأستاذ محمد كاظم
 السابق ص ٢٣ ، ٢٤

جرثومتها . وكان نتيجته كصاحها أن احتللت مآدتها ، ونشأ من ذلك دين جديد تنجلي فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء . . هالك يختلف للإسلام عن النصرانية إذ قضى الإسلام على مناسسه (الوثنية) قضاءً باتاً ونشر عقائده بغير غش .

« وإن هذا للإمبراطور الذي كان عبداً لندنيا ، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوى عنده شيئاً ، رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين - النصراني والوثني - أن يوحدهما ، ويؤلف بينهما حتى إن النصراني الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطوة . ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستردهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة . وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها »^(١).

وم تستطيع هذه النصرانية المنقحة بالوثنية أن تستزع الرومان من الحياة البهيمية الدعة التي كانوا يزاولونها في وثنيهم عندئذ عمدت إلى الطرف المقابل . . الرهبانية . . الرهبانية التي تكنت الميول المطرية والطاقات الطبيعية، والوطيمة الأساسية للإنسان في الأرض التعمير والخلافة . . ثم لا تفلح طعماً في قتل هذه القوى الضحمة العميقة الجذور في الكينونة البشرية . ولكنها تفتح فقط في إحالة الحياة إلى شد وحذب بين الدواعي والكوابح ، وإلى صراع أليم في داخل الكيان البشري ، وإلى دمر رهيب في الحياة الاجتماعية والعمرائية . .

ويصف ليكي في كتابه « تاريخ أخلاق أوروبا » ما وصلت إليه الرهبانية يقول :

(١) عن كتاب « ماذا حمر العالم باسقاط المسلمين » ص ١٤٠ ، ١٤١

« راد عدد الرهبن زياده عظيمة ، وعظم شأنهم ، واستمع أمرهم ، واسترعوا الأنظار ، وشعلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم ، وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبن ، وفي القرن الرابع المسيحى كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ، وكان الراهب «سراين» يرأس عشرة الاف ، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر» . .

وأخص « بيكى » وغيره في وصف حالة الرهبن ، وشاعة بعدها عن الفطرة الإنسانية ، والإنجابية الإنسانية ، والغلو في الهرب من طيبات الحياة ، ومكافحة نشاط الفطرة ، مما نكتفى فيه بتلخيص جيد واف للأستاذ أبى الحسن الندوى في كتابه « ماذا حصر العالم بالخطيئة المسلمين » تحت عنوان «عجائب الرهبن» جاء فيه

« طل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في لدين والأخلاق إلى قريب ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثنا عن الراهب ما كاريوس (Macarius) أنه نام ستة أشهر في مستقع ، ليقرض جسمه ايعارى ذباب سام ، وكان يحمل دائماً نحو قطار من حديد وكان صاحبه الراهب «يوسيبس» (Eusebius) يحمل نحو قطارين من الحديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر برح . وقد عبد اراهب يوحنا (St. John) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ، ولم يسم ولم يقعد طوال هذه المدة ، هذا تعب حدّ أسد طهره إلى الصحرة وكان بعض الرهبن لا يكتسبون دائماً ، وإنما ينسرب بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعم ، وكان أكثرهم يسكنون في معارات الساع والأدر السارحة ، والمقابر ، ويأكل كثير منهم الكلاً والحشيش . وكانوا

يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ، ويتأثمون من غسل لأعضاء وأرهد الناس عندهم وأتقاهم أنعدهم عن الطهارة ، وأوغدهم في السحاسات والندس ، ويقول الراهب (اتيسس) إن الراهب (أنتوني) لم يقترف ثم غسل الرحلين طول عمره . وكان الراهب (أبراهام) لم يمس وجهه ولا رجليه الماء خمسين سنة . وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلفاً : وأأسفاه لقد كان في زمن تعد غسل الوجه حراماً ، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات . وكان الرهبان يتحلبون في البلاد ويختطفون الأطفال ، ويهربون إلى الصحراء والأديار ، ويترعون الصبية من حجبهم أمهاتهم ، ويربونها تربية رهبانية ، والحكومة لا تمك من الأمر شيئاً ، واحمهور والدهاء يؤيدونهم ، ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم . وعرف كبار من الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب ، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في لبيوت ، إذا رأين لراهب أمور (Ambrose) وأصبح لآء ولأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً . وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى لرهبان والقسوس .

(وكان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال القوة والبروة التي كانت تعد فضائل ، عادت فاستحوالت عيوباً وذنابل . وزهد الناس في الششة وخفة الروح ، والصراحة ، والسماحة ، ولشجاعة والجرأة ، وهجروها . وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية ، وعم الكسود والقسوة على الأقارب . فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حسناً ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتحمدهم عيونهم على الآباء والأمهات ولأولاد . فيخدمون الأمهات ثكلى ، ولأرواح أيامى ، ولأولاد يتامى ، عالة يتكفون الناس ، ويتوحدون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة ، لا

يبطلون ماتوا أو عاشوا . وحكى (ليكى) من ذلك حكايات تدمع لعين وفقرن القلب .

« وكانوا يفرون من ظل النساء ، ويتأثمون من قرهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهم في الطريق والتحدث إليهن - ولو كما أمهات أو أزواجاً أو شقيقات - تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية وروى (ليكى) من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً^(١) .

فماذا كنت ثمرة هذا الغلو في مجافاة الفطرة ، ومحاولة سحق اسول والاستعدادات الفطرية العميقة في الكيوبة الإنسانية ؟

إنها لم تكن انتصاراً هذا الانحراف العاتى ، فهذا مستحيل والفطرة أعصب . ولم تكن اعتدالاً وتوازناً في حرج الماديه الشهوانية الرومانية وإيها كانت حليطاً من هذا وذلك . يفسد الحياة كلها إفساداً .

كانت هذه الصورة التى يرسمها (ليكى) فى كتاب : « تاريخ الأخلاق فى أوروبا » .

« إن التبذل والإسفاف قد بلعا غايتها فى أخلاق الناس وجتماعهم ، وكانت الدعارة والفجور والاحلال إلى الزنى ، والتساقط على الشهوات ، والتملق فى محالس الملوك وأساية الأغنياء والأمراء ، والمسابقة فى رحارف الساس والحلى والزينة فى حديثه وشدهته كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجع بين الرهبانية الفصوى ، والمحور الأقصى وإن المدن لى ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن فى الاخلاعة والفجور ، وقد جتمع فى هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته وقد ضعف رأى

(١) ماذا حصر العالم باحطاط المسلمين ص ١٤٢ - ١٤٣

الجمهور حتى أصبح الناس لا يحتفلون بسوء الأحداث والمصيبة بين الناس .
وكان الصمير الإنساني ربما يحذف الدين ووعيده ، ولكنه آمن واطمأن لاعتماده
أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان . لقد نفقت سوق المكر
والخدعة والكذب ، حتى فاق هذا العصر في ذلك ، عصر القباصرة ولكن
الظلم والاعتماد والقسوة والخلاعة كانت تؤدي إلى انحطاط في حرية الفكر
والحماسة الصربية .



ثم كانت الطامة الكبرى ، يوم وقعت الكنيسة بها نسته من آراء « علمية »
خاطئة وحرافات وأساطير شائعة ، واعتبرته حرًا من الدين والعقيدة يوم
وقعت بهذا العناء في رحمة المهج العلمي التحريبي الذي تسرب من الجامعات
الإسلامية إلى التلامذة الأوروبيين ، في وجه النتائج « العلمية » الحقيقية التي
أحد هذا المهج والتلامذة الأوروبيون لعلماء يصلون إليها ، وحرقت
العلماء ، وطاردهم وأبكرت مناهجهم ونتائج تجاربهم جميعًا

كانت هذه هي الطامة الكبرى . إذ جمع العلماء - ثم الجماهير - هوحًا
مصادًا لجموح الكنيسة ، لا يقف عند حد الاعتدال أبدًا . . .

وتلا ذلك الطرقات والمذاهب التي أشربا إليها ، حاحمة في تلويث الإنسان
وتحقيره ، ومن ثم إباحة كل حساسات الشهوات الجاحمة له ، بدون حدود ولا
قيود .

وطلت الموجة العاتية في مذهب حتى اللحظة الحاضرة . واساحت من
أوروبا إلى وليدتها أمريكا ، ثم اساحت منها إلى جبت الأرض ، وما تزال
مأصية في طريقها . عاصفة مدمرة . تمنح فيها أنواق الصحافة والسينما
والمرح والأدب والتصوير والبحث . وسائر المنون ، وسائر أجهزة الإعلام

والتوجيه . . ومن ورائها حقيقاً « بروتوكولات صهيون » التى تنص على أن هذا كله هدف أصيل للصهيونية العالمية ، لتدمير العالم - غير اليهودى - وإصابته بالانحلال ، ليسهل بذلك إخضاعه لحكم صهيون وما تزال البشرية تهوى إلى هوية الدمار الأكيد . وعجلة لحياه جامعة محبونة . تنهها سياط الأجهزة المتعددة . حتى يأذن الله ، فتسلم القيادة يد غير تلك البد الرعاء المحتونة الشاردة لمحمومة .

المرأة وعلاقات الجنسين

إن لتخبط فى النظر إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين ، والأريحة العقيمة بين الغلو والتفريط والتقلب من طرف إلى طرف ، والشد والحذب الذى لا يستقر على طريق وسط ، ولا يتسق مع فطرة ولا خلق . إن هذا كله لايقن عن بطيره فى النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته

ولا يقل أثر الاضطراب والتخبط فى النظرة إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين فى حياة المجتمع الإنسانى ، عن أثر التخبط والاضطراب فى النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته ، فكلاهما يسع من معين واحد هو الخهل بحقيقة هذا الكائن نوعيه ، ومن الهوى كذلك والصعف ، ثم الانقطاع - مع هذا الخهل والهوى والصعف - عن منهج الله وهده .

ولإدراك أهمية هذه المسألة مائة لتخط فى النظر إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين . لاند لنا ها من استصحاح جميع المصدمات لتي صدرن ها الحديث عن « الإنسان وفطرته واستعداداته » . . فهى نصها هاك تنطق عى الموصوع هنا فلايد أن يكون على ذكر منها ، وأن يعيد مراجعتها فى

لصفحات السابقة ، قبل المصى في موضوع المرأة^(١)

ثم بصيف إلى تلك المقدمات أن الحياة الشرية يستحيل أن تستقيم وتعتدل وتطمئن ، إذا كانت علاقة احسنين غير مستقرة . وإذا كانت تتأرجح - تبعاً للنظرة إلى المرأة - من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، أو إذا كانت تستند إلى الجهل والصعب والهوى .

إن هذه العلاقة هي التي يقوم عليها ساء لعمران - هي وقاعدة النظام الاقتصادي وتوزيع الثروات - كما يقوم عليها بناء الأخلاق الإنسانية في مجالات واسعة متشبكة . . . والنظرة إلى هذه العلاقة ، وإلى العلاقات الاقتصادية كذلك ، فرع عن النظرة إلى « الإنسان » التي أقصدها فيما تسمح به حدود هذا البحث المجمل في الصفحات السابقة ولكنها تحتاج إلى مزيد من الإيضاح خاص بها لصحامة أهميتها .

لقد عني الإسلام - مهج الله للحياة الإنسانية - بتصحيح النظرة إلى المرأة ، وبإقامة العلاقة بين الجسدين على أساس من حقائق الفطرة ، وتصحيح هذه العلاقة في كل فرع من فروعها النفسية والعملية ، بحيث لا تصطبغ ولا تتأرجح ، ولا يكتنفها العموض في زاوية من زواياها . .

عنى - أولاً - بيان وحدة الزوجين وتسويهما (من الناحية الإنسانية) ليقصى على جميع النظريات الخاطئة التي كانت مزعم أن للمرأة جنس مسحط بدائه عن جنس الرجل .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالاً كثيراً ونساء . » (النساء ١)

(١) من ص ٣٧ إلى ص ٥٠

وعنى - ثانياً - بيان وحدة الروحين وتساويهما (من ناحية علاقتهما بربهما
وجزائهما عنده) :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أصيب عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى
بعضكم من بعض . . » (آل عمران : ١٩٥)

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ،
والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والחסنيين والחסنيات ،
والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظةين لزوجهم
والحافظات ، والذكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم معفرة وأجرًا
عظيمًا . . . » (الأحزاب . ٣٥)

وعنى - ثالثاً - بيان نوع الصلة بين شقى النفس الواحدة ، وأهداف هذه
الصلة المتنوعة ، سواء ما يختص بها بالزوجين ، وما يختص منها بالمجتمع
الإنسانى كله . .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم
مودة ورحمة » . . . (الروم : ٢١)

« هن لباس لكم وأنتم لباس هن » . (البقرة : ١٨٧)

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » . . (لقرة : ٢٢٣)

وعنى - رابعاً - تنظيم الصلة بين الحسنيين فى كل أحوالها وأصوارها ، وما
يشاركهن فيه ، وما ينفرد به كل منها - وفقاً لكونه العصى ووصيه فى
المجتمع الإنسانى القائم عليه كليهما . . .

« أ » فبئ حقهما معاً - فى أصل الملكية والكسب والميراث - مع خصوصية
كل منهما فى بعض الفروع . وذلك للقضاء على جميع النظريات والأنظمة
الحافظة التى كانت تحرم المرأة حقها هذا :

« للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » . . .

(النساء : ٣٢)

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً » . .

(النساء : ٧)

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » .

(النساء : ١١)

« ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك - إن كان له ولد - فمن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس » . .

(النساء : ١١)

« وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت ، فلكل واحد

منهما السدس » (النساء : ١٢)

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . فإن طس لكم عن شيء منه نفست فكنوه

هنيئاً مريئاً » . . . (النساء : ٤)

« ب » وبين نظام قيام الأسرة ، ونظام التعامل بينهما في الأسرة ، وحقوق

كل منهما على الآخر ، وحقوق الأطفال الباشيين ثمرة التفانيهما كذا لك

فالعلاقة تبدأ رواجاً بمهر .

« وأحل لكم - ما وراء ذلكم ^(١) - أن ستعوا بأموالكم محصين غير

مساوحين ، فما استمتعتم به منهن فاتوهن أحوزهن فريضة ولا جناح عليكم

فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً » . .

(النساء : ٢٣)

(١) أي فيما عدا المحرمات المذكورات في آيات سابقة

والمرأة لا تورث كالمناخ ولا تمنع من الرواح بعد وفاة روحها لتقتدى نفسها من أهل الزوج - ولا تمسك بعد الطلاق صراراً حتى تقتدى بنفسها من الزوج - كما كان الحال في الجاهلية .

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهن ، ولا تعصلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن - إلا أن يأتين بفاحشة مبينة - وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتينكم إحداهن فلتأخذوا منه شيئاً ألتأخذونه مهتاتاً ورثاً مسناً ؟! » (النساء ١٩ - ٢٠)

وللرجل القوامة في البيت وعيه الإنفاق وله منزلة حقوق القوامة في المحافظة على كيان الأسرة من التفكك في مهتات الروايات العارضة ، والمحافظة على العش الذي تتعلق به حقوق الأطفال ، وحقوق المجتمع الشرى الذى يعتمد على مؤسسات الأسرة في نموه الاجتماعى ورقبه

« لرجاء قوامون على النساء ، به فصل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قنات حافظات لديب بما حفظ الله . واللاتى تحفون بشورهن ، يعطوهن ، وهن حروهن في انصاجع ، واضربوهن ، فإن أطعكم فلا تنعوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً »

(النساء : ٣٤)

فأما حين ينشئ على مؤسسة الأسرة التصدع والانحيار فهناك إحصاءات أخرى

« وإن حستم شقاق بينهما فاعنوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها . إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله عليماً خبيراً » .

(النساء : ٣٥)

وحين لا تجدى هذه المحاولة فهبك الطلاق إذن ليبحث كل منهما عن شريك يقيم معه مؤسسة لأسرة على أسس أقوى .

« وإن يترقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً » . . .

(النساء : ١٣٠)

والطلاق شروطه وعدد مراته وبطام المراجعة فيه وبظام الفقة كل شيء مبين بوضوح . وليس هنا مكان تفصيله .

وللأطفال حقوقهم عند تفرق الوالدين :

« ولوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين - من أراد أن يتم الرضاعة - وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكففس إلا وسعها لا تصار والدته بولدها ، ولا مولود له بولده - وعلى الوارث مثل ذلك - فإن أرادا فصلاً^(١) عن تراص منهما وتشاور فلا جناح عليهما - وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم - إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف - ونقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير » (البقرة : ٢٣٣)

* * *

ولا نستطيع أن نمضى أكثر من هذا فى تفصيل البطرة إلى المرأة وإلى علاقات الجنس فى المسح الإهوى . فقد أردنا له فصلاً كبيراً فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » . وحسبنا أن نشير إلى أن هذا الأمر مبين بوضوح ودقة وتوكيد - فى كل حزية من حرياته - وأنه كنه مسى على حقائق الفطرة فى تكوين الجنس الإنسانى أولاً ، وفى تكوين كل من روحه ثانياً - وأن توريح الاختصاص بينهما مراعى فيه دقائق البطرة ، التى يعلم بها بارئها ، ولا يعلم الإنسان عنها

(١) فصلاً - عطاماً للطفل

إلا قليلاً . فجهالتنا بها مطقة كجهالتنا بالإنسان كله !

ولكن الذى ينبغى توكيده - فى اختصار - هو أن طبيعة نظرة الإسلام إلى الإنسان لا تسمح بأن تكون العلاقة بين الحسنيين هي مجرد العلاقة الحيوانية القائمة بين أرواج احيوان . فالإنسان مخلوق عذ في تكوينه . فذ في عاية وجوده . فذ في مآله ومصيره . وهذه الخصوصية من شأنها أن تجعل لعلاقات الحسنيين فيه غاية أبعء وأشمى وأكر من عاية الالتقاء الحيوانى واللذة الحيوانية . عاية تتفق مع عاية وجوده كما تتفق مع طبيعة تكوينه ، التى المحا إليها فى الصفحات السابقة باختصار^(١) .

وليس تفصيل المنهج الإلهى لعلاقة الحسنيين موضوعنا هنا . إنما موضوعنا هو ذلك التخطيط الذى عانت منه البشرية فى أطوارها المختلفة ، وهى تشرد عن الله ، وتتخذ لنفسها مناهج تقوم على الخمل والهوى والضعف والشهوة فى أطوارها المتلاحقة ، ولا تستقر على وضع معتدل هادئ مطمئن فى صور من الأطوار .

وبجترى بالنخبطات التى تداولت المجتمع الأوروبى منذ عهد لإمبراطورية لرومانية - التى على أساس حضارتها تقوم الحياة الأوروبية المعاصرة - كما فعلت فى الكلام عن النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته

* * *

لقد تأرجمت النظرة إلى المرأة بين اعتسارها كائناً منحطاً أشبه بالأشياء منه بالأحياء ! إلى اعتبارها شيطاناً رجيماً يوسوس بالشرب والخطيئة ! إلى اعتبارها

(١) يراجع مد المرصوع بتوسع كاف فى كتاب « الحجاب » لسيء أبى الأعى المودودى وكذلك فى كتاب « الإنسان بين المادة والإسلام » للمحمد قطب

سيدة المجتمع والحاكمة في أقداره وأقدار حاكميه ! إلى اعتبارها عاملة عليها أن
تكفح وتشقى لتعيش ثم تحمل وتضع وتربي !
كما تأرجحت العلاقة بين الجنسين بين اعتبارها علاقة حيوان بحيوان . إلى
اعتبارها دنسًا ورجسًا من عمل الشيطان إلى اعتبارها مرة أخرى علاقة حيوان
بحيوان !

أما أن المرأة شطر النفس الإنسانية ، وأنها صانعة الجنس البشري ، وأنها
حارسة العش الذي تدرج فيه الطفولة وأنها الأمية على أنفس عناصر هذا
الوجود « الإنسان » وأن عملها في إتقان هذا العصر لا يعدله عملها
في إتقان أي عصر آخر أو أي جهاز . إلى آخر هذه الاعتبارات الفطرية
الإنسانية الكريمة فهذا ما لم يعتد به ميزان قط ، في تلك المناهج
الجاهلية .

وأما العلاقة بين الجنسين أداة لخدمة النوع الشري ، بإنشاء المحض الأم
اللطيف الواعي المتخصص ، لإنتاج صناعة الشر - وهي أثم وأعلى صناعة
في هذه لأرض - واعتبار « الواجب » - لا اللذة - هو عماد هذه العلاقة ، لتعلق
المستقبل الشري كله بها ، وقيام التمدن الشري عليها أما هذا الاعتبار
فلم يعتد به الميراث كذلك قط في مآهج الجاهلية القديمة أو الحديثة
وقد مصت الجاهلية الإغريقية القديمة عن ذلك النمط ، ولا مجال
للحديث عنها هنا خوف الإطالة .

« والذين تسنموا دروة لمجد والرقى في العالم - بعد اليونانيين - هم الرومان .
وفي هذه الأمة أيضًا نرى تلك أسلسلة من لصعود واهبوط . التي قد
شاهدناها في اليونان - فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلم الجهل ،
وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة ، كان لرحل رب الأسره في مجتمعهم ، له

حقوق المثلث كاملة على أهله وأولاده بل بلغ من سلطته في هذا الشأن ، أن كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الأحيان^(١)

« ولما تحققت فيهم سورة الوحشية ، وتقدموا خطوات في سبيل المدنية والحضارة ، تخففت القسوة في تلك السدطة ، وجعلت الكفة تميل إلى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً و إن بقي نظام الأسرة القديم ثابتاً على حاله .

» ثم أحدث نظرية الرومن في النساء تبدل (بعد فترة من شبه الاعتدال والتوازن) رقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة . وما زال هذا التبدل بصرأ على أنظمتهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة ، وعقد الزوج والطلاق ، إلى أن انقلب الأمر طهرًا لبطن ، وانعكست الحال رأساً على عقب ، فلم يبق لعقد ازواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدنى (Civil Contract) فحسب ، يحصر بقوّه ومضيه على رضى المتعاقدين وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلاً و منحت المرأة جميع حقوق الإرث والملك ، وحدها القانون حرة طليقة لا سلطان عليها للأب ولا للزوج ولم تصح الرومانيات مستقلات بشئون معاشهن فحسب ، بل دخل في حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من ثراء القومى على مسير الأيام . فكر يقرصن أرواحهن بأسعار الرما الفاحشة ، مما يعود به أرواح المثرىات من النساء عبيداً هن في ميادين العمل والنواقع ! ثم سهبوا من أمر الطلاق تسهلاً جعله شيئاً عادياً يلجأ إليه لآتفه الأسباب . فهذا « ستيكا » الفيلسوف الرومانى الشهير (٤ ق . م - ٥٦ م) يندب كثرة الطلاق ، ويشكو تفاقم خطئه بين نبي حديثه فيقول : « إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحى منه في بلاد

(١) وبيع أولاده كدبك

الرومان وقد بلغ من كثرته وديوع أمره ، أن جعلت النساء يعددن أعمارهن بأعداد أزواجهن !

« وكانت المرأة الواحدة تتروح رحلا بعد آخر ، ونمضي في ذلك من غير حياء . وقد ذكر « مارشل » (٦٠ - ١٤٠ م) عن امرأة تقببت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات . وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس « حروم » (٣٤٠ - ٤٢٠ م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة اثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هي أيضًا الحادية والعشرين لبعدها !

« ثم بدأت تتغير نظرهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر ، أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنا شيئًا عاديًا . فهذا « كاتو » (Cato) الذي أسندت إليه « احسبه الخلقية » سنة ١٨٤ قبل الميلاد يجهر بجوار اقتراف الفحشاء في عصر الشب . وذاك « شيشرون » (Ciso) المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأعلال الأخلاق المثقلة ، بإطلاق العنان لهم في هذا الشأن . ولا يقتصر الأمر عليهما ، بل يأتي « أنكتيتس » (Epictetus) الذي يعد من المتصلين في باب الأخلاق من فلاسفة الروافيين (Stoics) فيقول لتلاميذه .
مرشدًا ومعلمًا . « تجسوا معاشرة النساء قبل الزواج - ما استطعتم - ولكنه لا يسعى أن تلوموا أحدًا ، أو تؤنبوه ، إذا لم يتمكن من كبح حماح شهراته . »^(١)

ثم كان من ثمرة هذه الاتجاهات ما سبق أن أثبتناه^(٢) ، من حلال

(١) عن كتاب (الحجاب) للأستاذ المودودي ص ٢٠ - ٢٣ .

(٢) ص ٥٤ - ٥٦ .

عزى المجتمع الرومانى . ثم دمار هذا المجتمع . وسقوط الدولة
الرومانية .



ومن هذه الساحة الإباحية المطلقة والشهوانية العارمة ، واعتبر اللذة عاية
النساء الجنسين التى لا غاية وراءها . . .

ومن هذا الطرف القصى انتقلت أوروبا - أو أرادت الكنيسة نقلها - إلى
الطرف الفاصى الآخر إلى الرهبة وإلى القرار من المرأة ، وإلى مهانتها فى
الوقت ذاته وازدراؤها .

وقد سبق أن تحدثنا عن الرهبة وسلطان الكنيسة فى المجتمع
الأوروبى واضطراره وتحفظه ، حتى أفتت أوروبا منه شاردة إلى تيه الجاهلية
الحديثة .

وتزيد الأمر هنا يضاحاً فيما يتعلق بالنظرة إلى المرأة خاصة ، وإلى العلاقة
بين الجنس فى ظل التصور الكنسى . .

« فمن نظريتهم الأولية الأساسية فى هذا الشأن ، أن المرأة يسوع المعاصى ،
وأصل السبئية ولعجور ، وهى للرجل باب من أبواب جهنم ، من حيث هى
مصدر تحريكه وحمله على الآثام . ومنها انحست عيون المصائب الإنسانية
جمعاء ، فحسبها بدامة وحلاً لها امرأة ' ويسعى لها أن تستحي من حسناتها
وحملها ، لأنه سلاح إبليس الذى لا يوزيه سلاح من أسلحته المتسوعة ، وعيها
أن تكفر ولا تقطع عن أداء لكهنة أندا ، لأنها هى التى قد أتت بها أتت من
الرزء والشقاء للأرض وأهلها .

« ودونك ما قاله « تيرتوليان » (Tertulian) . أحد أقطاب

«المسيحية الأولى وأئمتها ، مبيّناً نصريه المسيحية»^(١) في المرأة .
«إسها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، وإسها دافعة بالمرء إلى الشجرة
الممنوعة . ناقصة لقبول الله ومشوهة لصورة الله - أي الرجل » .
«وكذلك يقول « كرائى سوستام » (Chry Sostem) الذى بعد من كبار
أولياء الديانة المسيحية في شأن المرأة :

«هى شر لا بد منه ، ووسوسة خبيّة ، وآفة مرعوب فيها ، وخطر على
الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتاة ، ورء مطبى مموء !
« أما نظريتهم الثابتة في باب النساء ، فخلاصتها أن لعلاقة الجنسية بين
الرجل والمرأة هى نجس في نفسها يجب أن تتجنب - ولو كانت عن طريق نكاح
وعقد رسمى مشروع - هذه الصور لرهسى للأخلاق الذى كانت حدوده تكاد
تأصل في أوروبا من قبل ، بتأثير الفلسفة الإشرقية (NEO - Platonism)
جاءت المسيحية فزادته شدة ، وبلغت به منتهاه . وذلك أن أصبحت حياة
العروبة مقياساً لسمو الأخلاق وعلو شأنها ، كما صارت الحياة العدائية عبئاً
على انحطاط الأخلاق ومهانة الطباع . و جعلوا يعدون العزوبة وتجنب الزواج
من أمارات التقوى والورع وذكاء الأخلاق . و أصبح من المحتوم من يريد أن
يعيش عيشة نزيهة ألا يتزوج أصلاً ، أو لا يعاشر امرأته معاشرة الروح لزوجه
على الأقل ! وكذلك قرروا ووضعوا القوانين في مؤتمراتهم الدينية المتعددة بأن لا
يختل رجال الكنيسة بأرواحهم . وألا يتلاقى الرجل والمرأة منهم إلا بمرأى من
الناس ، أو أمام رحلين من رجالهم على الأقل . . وما آلوا جهداً في أن يشتوا في

(١) الأولى أن يعبر دائماً « بالنظرية الكسبية » بعدد من بين حقيقة المصرية ، و « التصورات
الكسبية »

هروب الناس الشعور ببشاعه العلافه الروحية وتنجسها وحد لذلك مثلاً
أن كان شائعاً بينهم ، أن الزوجين اللذين اتفق لهما أن يبيتا معاً ليلة عيد من
الأعياد ، لا يجوز لهما أن يعبدوا ويشتركا مع القوم في رسومهم ومباهجهم ،
كأنى بهم يرون أنها قد اقترفا إثماً سلبها حق المشاركة في حمل ديني مقدس
عندهم . . وقد نلع من تأثير هذا التصور الرهني ، أن تكدر صهو ما بين
أفراد الأسرة والعائلة من الأواصر وحتى ما بين الأم ولولده منها إذ أمسى كل
قرة وكل سب ناتج عن عقد الروح بعد إثماً وشئاً نحساً !

« وهاتان النظريتان ما وضعت من مكنة المرأة وحطنا من شأنها في حقول
الأخلاق والاجتماع فحسب ، بل كان من مفعولها القوى ، ونفوذها السالع في
القويين المعينة ، أن أصبحت الحياة الزوجية صعث حرج وصيق للرجال
والنساء بجانب ، ويحارب آخر انحطت منزلة المرأة في المجتمع في كل ناحية
من نواحي الحياة » (١).



ثم انفلتت أوروبا من ربة الكنيسة وتصوراتها الكسبية ، وشردت عن الله
وعن الدين كله ، ومضت في شرودها أبقة من كل ما يربطها بالله وبالدين .
صحيحه ورائه على السواء !

وفي خلال القرن التاسع عشر طهر داروين وفرويد وكارل ماركس جميعاً
وكانت إيجاءاتهم وتوحيهاتهم كلها منصبة على تحقير الإنسان شتى
الطرق مرة بحيوانيته المطلقة على يد داروين . ومرة بوحده الحسنى المطلق على
يد فرويد . ومرة بسلبه وصائله دوره تجاه المادة والعوامل الاقتصادية على يد
كارل ماركس .

(١) كتاب الحجاب «بلاستاد المودودي» ص ٢٥ ٢٨

وكل هذه الاتجاهات والتوجيهات كما تؤثر في النظرة إلى الإنسان ذاته ، تؤثر كذلك في النظرة إلى المرأة وإلى لعلاقات بين الجنسين بصفة خاصة . وتحطم كل قوائم الأخلاق وتطلق الجنسين حيوانين يتلمسان الشهوة واللذة لذاتهما حتى اهدف الحيوانى من حفظ النوع بالسسل لم يعد الناس في أوروبا وأمريكا يظرون إليه إلا على أنه قد يحد من حرية لاحتلاط الحسى ، ويحمل لذكر والأنثى تبعات لا يريدان أن يتحملها . فأصبح همهما معاً هو التخلص من آثار اللذة بعد الالتقاء الحسى ، بمنع الحمل ، أو بالإجهاض أو بؤاد الوليد . (وستحدث عن هذا بشئ من التفصيل في فصل تال) . .

لهم ها أن تقرر جموح النظرة إلى المرأة ، بعد انفلات أوروبا من نير الكنيسة والتصورات الكنسية ، وشروطها - إنان هذا - عن الله وعن مهجه في الحياة ، والفصل بين للذة الحسية في علاقات الجنسين وأهدافها الإنسانية - ثم أهدافها احيوانية أيضاً .

« قامت لي إحدى الفتيات الأمريكيات في معهد المعلمين (حريي كولورادو) في أثناء مناقشة عن الحياة لاجتماعية في أمريكا .
« إن مسألة العلاقات الحسية مسألة بيولوجية بحتة ، وأنتم - لشرقيون - تعتقدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العصر الأخلاقي فيها . فحصان والفرس ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والديك والفرجة . . لا يفكر أحد منها في حكاية الأخلاق هذه ، وهو يزاول الاتصال الحسى ولدنت تمضى حياتها سهلة بسيطة مريحة !!!

« وكانت إحدى المدرسات في المعهد المركزى لتعليم اللغة الإنجليزية للغرباء بمعهد ويلسون للمعلمين بواشنطن ، تلقى على مجموعة من طلبة أمريكا اللاتينية - الذين يمدون في هذا المركز لتلقى الدراسة باللغة الإنجليزية

درسًا في تقاليد المجتمع الأمريكي وفي نهاية الدرس سألت طالبًا من جواتيمالا عن ملاحظاته عن المجتمع الأمريكي . . فقال لها : لقد لاحظت أن فتيات صغيرات في سن الرابعة عشرة وفتياتًا صغارًا في سن الخامسة عشرة يراولون علاقات جنسية كاملة . . وهذا وقت مبكر جدًا لمراولة هذه العلاقات . . وكان ردها في حماسة :

« إن حياتنا على الأرض جد قصيرة وليس هناك وقت نصيحه أكثر من الرابعة عشرة . . »^(١).

وقد احترت هذين السمودجين بالذات من مئات الأمثلة التي شاهدتها هناك . لأن صاحبتيهما مدرستان ، وتأثير المدرسة في شر مثل هذه الإباحيات أوسع من تأثير أى شخص آخر .

ومع هذه الإباحية المطلقة - أو نسب هذه الإباحية المطلقة - لم نعد لعلاقات الحسية الطبيعية المباحة الرخيصة تشع الميل الجنسي ، فانتشر الشذوذ الجنسي ، فابيل إن الجنس الآخر سواء في عالم الفتيان ، أو في عالم الفتيات ، ويحتوى تقريراً « كرى » عن « السلوك الجنسي عند الرجل ، والسلوك الجنسي عند النساء » ، إحصاءات دقيقة وعجيبة عن هذا الشذوذ . وأذكر - بقدر ما يسمح الحياء وأدب الكتابة - مشاهدة شخصية في أحد فنادق واشنطن :

« كنت مع زميل مصرى نزل في هذا الفندق - بعد وصولنا إلى لولايات المتحدة الأمريكية بيومين اثنين - وقد أسس إلينا عامل المصعد الرنجى - لأسأ أقرب إلى لوبه ، ولأننا لا نحتر الملوين - فحصل يعرض علينا « خدماته » في « الترفيه » . ويدكر « عيبات » من هذا الترفيه بما فيها « الشذوذات » المختلفة . .

(١) من كتاب « أمريكا التي رأيت » .

« وفي أثناء العرض جعل يفص علينا أنه كثيرًا ما يكون في إحدى الحجرات
«زوج» من الفتيان أو الفتيات . ثم يطلبان إليه أن يدخل إليهما رجاجة كوكا
كولا . . دون تعبير لوصفهما عند دخوله !!!
« ولما بدا علينا الاشتزاز والاستغراب ، وقلنا له
« أما يحجلان ؟

« أحاب بدوره متعجبًا لاشمئزازنا ونعحسا وسؤالنا عن الخجل .
« لماد ؟ إيهما يرضيان ميولهما الخاصة ، ويمتعان أنفسهما . . وعلمت فيما
بعد . من المشاهدات الكثيرة - أن لمجتمع الأمريكي لا يستكر على إنسان أن
يرضى لدته بالشكل الذي يروق له طائمًا أن ليس هناك إكراه . ومن ثم فلا
جريمة . . حتى فيما لا يزال القانون - على الورق - يعده جريمة . »^(١)
واحال في أوروبا - وبخاصة في بلاد الشمال - لا يفترق كثيرًا عن الحال في
أمريكا . أما أثر هذا الانحلال في حياة المجتمع ، وفي تدمير «الإنسان»
وتحطيم المجتمع الإنساني ، وفي تهديد الحضارة الإنسانية الراهنة بانزواء ، كما
انزوت حضارة الرومان القديمة ، فستحدث عنه في فصل تال



والكنيسة ؟ ما شأنها مع هذا الانحلال الجارف ؟ ورجال الدين ما شأنهم
مع المجتمع الجديد ؟
إن كثيرين ممن لم يعيشوا بعض الوقت في أوروبا أو أمريكا - أو ممن عاشوا
هناك ولكنهم لم يتعمقوا وراء الطواهر - كثيرًا ما تخدعهم كثرة الكنائس
واسمارها - وبخاصة في الولايات المتحدة - حيث تقوم في البلد الصغير الذي
لا يتجاوز تعدادة عشرة آلاف نسمة أكثر من عشرين كنيسة أحيانًا وكثيرًا

(١) من كتاب « أمريكا التي رأيت »

ما تحددعهم كثرة مظاهر الاحتفالات المدسنة والمراسم والأعداد الدسنة وكثيراً
ما تحددعهم كثرة الأحزاب التى تحمل أسس « المسيحية » . ثم كثير ما
يحددعهم ما يكتبه ويديعه رجال الدين من كتب ومفالات وبحوث وإداعات
فى موضوعات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ولعلمية البحتة
أحياناً . .

كثيراً ما يحددعهم هذا كله فيحسون أن لادين شأناً فى أوروبا وأمريكا وأن
لرجال الدين أثراً فى الحياة الاجتماعية هناك . وهذه نظرة سطحية لا تدرك
حقيقة ما هو واقع هناك .

إن الكيسة - بعد أن دانت مرارة الإهمال ، ووحشة البعد عن الحياة
الاجتماعية ، بعد شرود الناس منها منذ عصر النهضة ، وخاصة منذ عصر
التوير ، ثم عصر الفلسفة الرضعية المادية - قد عادت تلهث وراء المجتمع ،
وتتعلق بأهداب الناس . لا لتقود لمجتمع ولا لتقل الدس إلى الدين ولكن
لتجرى وراء المجتمع ، ولتتملق شهوات الناس !

عادت لتقيم فى الكنائس - بعد القداس - حفلات مختلطة للجنسين يشرب
فيها البيذ ، وتدور حلقات الرقص ، وتعرض فيها ألعاب السلية ،
ويتحاصر فيها العتيان والفنيات المحمورين ، ويلتدون نشوة المحاصرة
ولعنق حتى الفجر . . كل أولئك لاحتداد الشان والشواوب إلى الكيسة !
لقد حربت الكيسة حين وقفت - بلباطل - فى وجه ميول الناس القطرية ،
كيف خرخوا عليها وداسوها وأهدوها فعدت الآن تتجنب أن تقف - بلحق
- فى وجه شهواتهم ونرواتهم ، فيدوسوا عليها ويهدوها !

لقد عادت أوروبا إلى حياة الرومن لقديمة التى نسمح للآهة والأرباب أن
تطلق بالحر عى السنة الكهر ، وأن تكون مواسمها مواسم بهجة ولذة

ومتاع . وذلك دون أن يسمحوا لها بالتدخل في شؤون حياتهم أو توجيهها
وجهة تافى اللذة والمتاع

ويجذب بعض الناس هنا فيحسبون أن للكنيسة نفوذاً في حياة الناس وأن
للذين هناك وجوداً جدياً يستحق الاحترام . ويحسبون أن « مروة » الكنيسة
و« ثقافتها » هناك هي التي ضمنت لها هذا النفوذ ، وضمنت للمسيحية أن
تبقى بعد أعاصير عهد النهضة والتنوير والمادية وهو مجرد وهم لا يقوم على
معرفة ما هو واقع هناك .

ولكن رجلاً أوروبياً مستثيراً مدرّكاً مثل « ليوبولد فايس » الذي أسلم
واهتدى وسمى نفسه « محمد أسد » لا يجذعه ما يجذب بعض الناس هنا
لأنه عاش هناك . فيقرر في كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » ما قرّنه ، وما
بصمته مشاهدنا الكثيرة في أمريكا عن هذا الأمر بالذات .
يقول :

« لقد سيطر على الغرب الحديث في أوجه نشاطه وجهوده اعتبارات من
الانتفاع العملي (المادي) ومن التوسع الفعّال فقط . وقد كان هدفه الذاتي
إبى هو المعالجة والاكتشاف لكوامن الحياة ، من غير أن يسب إلى تلك الحياة
حقيقة أدبية في ذاتها . أما قضية « معنى الحياة » والغاية منها ، فقد فقدت مد
زمن بعيد في نظر الأوروبي الحديث جميع أهميتها العملية . » (ص ٣٠)

« إن الاتجاه الديني منى دائماً على الاعتقاد بأن هناك قانوناً أدبياً مطلقاً
شاملاً ، وأساساً - نحن البشر - مجبرون على أن نحضّع أنفسنا لمقتضياته ، ولكن
المدنية الغربية الحديثة لا تقرر الحاجة إلى خضوع ما إلا لمقتضيات اقتصاديه ، أو
اجتماعية ، أو قومية . إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ولكنه
« الرفاهية » . وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها

عن طريق الرغبة في القوة . . وكلا هذين موروث من المدنية الرومانية
لقديمة . « (ص ٣٣) .

« كانت الفكرة التي تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية ، الاحتياح بالقوة ،
واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده . وفي سبيل الترفيه عن فئة
عامة لم ير الرومان في عملهم سوءاً ولا في ظلمهم انحطاطاً . وإن « العبد
الروماني » الشهير كان عدلاً لرومانيين وحدهم . ومن الذين أن اتجأه كهد ،
كان ممكناً فقط على أساس ادراك مادي خالص للحياة وللحضارة . إدراك
مادي هذبه على التأكيد دوق فكري . ولكنه على كل حال بعد عن جميع القيم
الروحية . إن الرومانيين - في الحقيقة - لم يعرفوا الدين . وإن آهتهم التقليدية لم
تكن سوى محاكاة شاحبة للحضارات اليونانية . . لهد كانت أشباحاً سكنت عن
وجودها حطاً بلعرف الاجتماعي . ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور
الحياة الحقيقية . بل كان عليها أن تنطق بالرحز على ألسنة عرافها - إذا سئلت
مثل ذلك - ولكن لم يكن يتظر منها أن تمنع الشر شرائع خلقية

« تلك كانت الربة التي تمت فيها المدنية العربية الحديثة . . ولقد عملت
فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة في أثناء تطورها . ثم إنها بطبيعة الحال قد
مدت وحورت في ذلك الإرث الثقافي الذي ورثته عن رومية في أكثر من ناحية
واحدة . ولكن الحقيقة الدقية أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف
العربي للحياة والأحلاق ، يرجع إلى المدنية الرومانية . وكما أن الحو لصكري
والاجتماعي في رومية القديمة كان بمعياً بحثاً ، ولا دينياً - لا على الافتراض بل
على الحقيقة - فكذلك هو في العرب الحديث . . ومن غير أن يكون لدى
الأوروبي برهان على بطلان الدين المطلق ، ومن غير أن سلم بالحاجة إلى مثل
هذا البرهان ، ترى التكمير الأوروبي الحديث - بينما هو متسامح في الدين ،

وأحياناً يؤكد أنه عرف اجتماعي - نرك على العموم ، الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية .

« إن المدنية الأوروبية لا تحمد الله الشة ، ولكنها لا ترى محالاً ولا مائدة الله في نظمها المكرى الحال . فقد اصطنعت قضية من العجر المكرى في الإنسان - أي من عجره عن الإحاطة بمجموع الحياة - وهكذا يميل الأوروبي الحديث ، إلى أن ينسب الأهمية لعملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التحريية ، أو تلك التي ينتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوحه ولا تحت ذلك ، فإن العقل الأوروبي يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتبارات العملية » . (ص ٣٦ - ٣٧)

ويقرر الأستاذ أبو الحسن الدوى هذه الحقيقة باختصار في كتابه القيم «ماداحسر لعالم بانحطاط المسلمين» في قوله ..

«دينة أوروبا اليوم ، المادية ، لا النصرانية . فمما لا شك فيه أن دين أوروبا اليوم الذي يملك عليها الصلب والمشاعر ، ويحكم على الروح هو «المادية» لا «النصرانية» كما يعلم ذلك كل من عرف المفسية الأوروبية عن كتب ، لا عن كتب ، بل وعن كتب أصاً ولم ينخدع بالمظاهر الديبة ، التي تزيد أمة الدوة ، والتي يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوعاً ولم ينخدع بريرتهم للكائنات ، وحصورهم في تقاليدها » . . . (ص ١٥٤)

ولا بأس - بعد رسم هذه الصورة بقلم الكاتين الواعين - أن أصيف إليها فقرة مما كتبه عن مشاهداتي الخاصة في كتب «أمريك التي رأيت»^(١) عن

(١) تحت الطبع

موضوع الكنيسة والمجتمع بالذات ، في مسألة المرأة والعلاقات بين الجنسين . .
فقد يزيد في جلاء الوهم الذي يراود الزائرين العابرين ، أو المخدوعين في
المظاهر والعناوين . .

« ليس أكثر من الأمريكان شبيداً للكنائس ، حتى لقد أحصيت في بلدة
واحدة ، لا يزيد سكانها على عشرة الاف ، أكثر من عشرين كنيسة ،
وليس أكثر منهم ذهاباً إلى الكنائس في ليالات الأحد وأيامه ، وفي الأعياد
العامّة وأعياد القديسين المحبين . وهم أكثر من « الأولياء » عند عوم
المسلمين !

« وبعد ذلك كله ليس هناك من هو أبعد من الأمريكي عن الشعور بروحية
الدين واحترامه وقداسته . وليس أبعد من الدين عن التفكير الأمريكي
وشعوره وسلوكه .

« وإذا كنت الكنيسة مكاناً للعبادة في لعالم النصارى - على تدهوت - فإنها
في أمريكا مكان لكن شيء إلا للعبادة . وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها
وبين أي مكان آخر معد للهو والتسلية ، أو ما يسمونه بلغتهم " Fun " Time
Good ومعظم قصاصها إنما يعدونها تقليداً اجتماعياً ضرورياً ، ومكاناً
للقاء والأنس ، ولتمضية « وقت طيب » وليس هذا شعور الجمهور وحده ،
وبكنه كذلك شعور سدة الكنيسة ورعاتها .

« وللعظم الكنائس ناد يتلف من الجنسين - شباناً وشباب - ويجهد راعى
كل كنيسة أن يلحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن . وبخاصة أن هناك تنافساً كبيراً
بين الكنائس المختلفة بالمداهب والنحل . ولهذا تتسابق جميعاً في الإعلان عن
نفسها بالشرب المكمونة ، وبالألوان الملونة على الأبواب والحدائق ، لتست
الأنظار ، وتقديم لبرامج اللديدة المشوقة ، بجلب الحميمير ، بنفس الطريقة

التي تتبعها المتاحر ، ودور العرض السسماني والتمثيل . وليس هناك من رأس في استخدام أهل فتيات المدينة وأرشقهن وأبرعهن في الغناء والرقص والبرويج . ثمّما كم يقف فتيات في ثياب شديدة اللمعان والإثارة - أو في «مايوه» - في مداخل وطرفات دور السينما لجذب الأنظار

« وهذه - مثلاً - محتويات إعلان عن حفلة كسبية ، كانت ملصقة في قاعة اجتماع الطبية في إحدى الكليات ، لجذب طلبة الكنية وطالبات إلى كنيسة معينة في المدينة الجامعية الصغيرة :

« يوم الأحد - أول أكتوبر سنة ١٩٥٠ - في الساعة السادسة مساء .

« عشاء خفيف . ألعاب سحرية . ألغاز . مسابقات . تسلية . رقص » .

« وليس في هذا أية غرابة لأن راعي الكنيسة لا يحس أن عمله يختلف في

شيء عن عمل مدير المسرح ، أو مدير المتجر . النجاح أولاً وقبل كل

شيء . . . ولا تهم الوسيلة . وهذا النجاح يعود عليه بنتيجة الطبية : المال ،

والخاء ، فكلما كثر عدد الملتحقين بكنيسته عظم دخله وزاد كذلك احترامه

ونفوذه في البلدة . لأن الأمريكي بطبيعته يؤخذ بالضخامة في الحجم والعدد .

وهي مقياسه الأول في الشعور والتقدير

« كنت ليلة في إحدى الكنائس ببلدة (جريلى) بولاية (كولورادو) فقد

كنت عصواً في ناديا ، كما كنت عصواً في عدة نواد كنسية في كل جهة عشت

فيها ما بين واشنطن والشرق وكاليفورنيا في العرب . إذ كانت هذه ناحية هامة

من نواحي المجتمع ، تستحق لدراسة عن كثب . ومن « اساطير » لا من »

« العاهر » وكنت معنيًا بدراسة المجتمع الأمريكي . . .

« وبعد أن انتهت « الخدمة الدينية » في الكنيسة ، واشرك في الرانيل فتية

وفتيات من الأعضاء ، وأدى الآخرون الصلاة دلهما من باب جانبي إلى

مساحة الرقص الملاصقة لقاعة « الصلاة » . يصل بينهما باب . . . وصعد
 « الأب » إلى مكتبه ، وأخذ كل فتى بيد فتاة ، وبسهم وبينهن أولئك الدين
 واللواتى ، كانوا وكن يقومون بالترتيل ويقمن . .
 « وكانت مساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والأضواء الزرقاء ، وقليل
 من المصاييح البيضاء .

« وحى الرقص على أنغام « الحراميون » ومالت المساحة بالأقدام
 والسيقان ، والتفت الأذرع بالخصور والتقت الشفاه والصدور . وكان الجو
 كله غرامًا . . حين هذا الأب من مكتبه ، وألقى نظرة حصة على المكان ومن
 في المكان ، وشجع الجالسين واجالسات ممن لم يشتركوا في الحلبة ، على أن
 ينهضوا فيشاركوا . . وكأنها لحظ أن المصاييح البيضاء تريد نستها فتفسد ذلك
 الجو « الرومانسى » الحالم ، فراح فى رشاقة الأمريكسى وحفته ، يطمئنها واحدًا
 واحدًا ، وهو يتحاشى أن يعطل حركة الرقص ، أو يصدم « زوجًا » من
 الراقصين ، فى المساحة . . وبدأ المكان بالمعل أكثر « رومانسية » ثم تقدم إلى
 « الحراميون » ليختار أسطوانة للرقص ، بنسب ذلك الجو ، وتشجع
 القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه .
 « واختار .

« اختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها (But, baby it is cold)

(ولكن الجو - يا صغيرتى - بارد فى الخارج)

« وهى تتضمن حوارًا بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهم وقد احتجرتها
 الفتى فى داره ، وهى تدعوه أن يدعها تمضى لتعود إلى دارها ، فقد تأخر
 الليل ، وأنها تتطرها ، وكما تدعت بحجة أحاسها بتلك « اللارمة » (ولكن
 الجوى يا صغيرتى بارد فى الخارج . . .)

« وانتظر الأب ، حتى رأى خطوات « بناته وبنيه » تسد على موسيقى تلك الأغنية المثيرة . وبدأ راضياً معنطاً . وعادرساحة الرقص إلى داره ، تاركاً هم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة البريئة . . على أن يسلم مفتاح الكنيسة في داره آخر « زوج » ينصرف من الكنيسة فالانصراف يكون تباعاً حسب مزاح كل زوج !!

« (وأب) آخر يتحدث إلى صاحب له عراقي من الطلبة ، توثقت بيته وبنيه عرى الصداقة ، فيسأله عن « ماري » - زميلته بالكلية - لم لا تحضر إلى الكنيسة الآن ؟ ويسدى أنه لا يعنيه أن تعيب فتيات الكنيسة جميعاً وتحصر « ماري » وحين يسأله الشاب عن سر هذه اللفتة ، يجيب « الأب » . إيا حذية . وإن معظم اشبان إلى يحضرون وراءها !

« ويحدثني شاب من شياطين الشباب العرب العراقيين الذين كانوا يدرسون في أمريكا . وكنا نطلق عنه اسم « أبو العتاهة » - وما أدري إن كان ذلك يعصب الشاعر القديم أو يرضيه ! - إن « صديقه » كانت تتزع بعسها من بين أحصانه أحياناً ، لأنها ذاهبة للتزيل في الكنيسة . . وكانت إذا تأخرت لم تنع من إشارات « الأب » وتلميحاته ، إلى جريوة « أبي العتاهة » في احتجازها عن حضور الصلاة ! . . هذا إذا جاءت من غيره فأما إذا استطاعت أن تجره وراءها ، فلا لوم ولا تريب !

« ويقول لك هؤلاء « الآباء » . إما لا يستطيع أن تجذب هذا لشباب إلا هذه الوسائل . ولكن أحداً منهم لا يسأل نفسه : وما قيمة احتدابهم إلى الكنيسة وهم يخوضون إليها مثل هذا الوحش ، ويقضون ساعاتهم فيه ؟ أهو الذهاب إلى الكنيسة هدف في ذاته ؟ أم آثاره التهديدية في الشعور والسلوك ؟ من وجهة نظر « الآباء » إلى أوصحتها فيما سلب - مجرد الذهاب إلى

الكنيسة هو الهدف وهو وضع لمن يعيش في أمريكا مفهوم
« ولكي أعود إلى مصر ، فأحد من يتحدث أو يكتب عن الكنيسة في
أمريكا وعن سماحتها في مقابلة ، لخطأ والانحراف ، وعن شاطئها في تطهير
القلوب والأرواح . وعن استمراء سلطان الدين بهذه الأساليب ، المنظورة ، التي
لا تتشدد فيهرب منها الناس » « والله في حقه شئون »^(١) .

* * *

وهكذا يتضح من هذا الاستعراض - المحمل على طوله - مدى التحبط
ولاصطراب في النظرة إلى المرأة وعلاقات الحسنيين ، في تزييح أوروبا ، ومدى
التأرجح بين الطرفين المتساعدين - هذا التأرجح الذي لم يعتدل به الميزان قط ،
لوضع كل شطر من شطري النفس الواحدة في مكانه الحقيقي . ولإدراك دور
المرأة الحقيقي ، ومكانها الطبيعي - والذي شقى به الجنسان ، وشقيقت به
الشريعة - وما ترال نشقى - حتى يأذن الله ، فتسلم زمام احصارة الشريعة يد
أمنية ، موصولة بالله ومنهجه للحياة

النظم الاجتماعية والاقتصادية

كما وقع التحبط ، والبطور ، واهرات العيفة ، والتأرجح بين الطرفين
الحامين دائماً ، وعدم اعتدال الميزان في الوسط العادل المتناسق . كما وقع
هذا كله في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته وفي النظرة إلى المرأة
وعلاقات الحسنيين كذلك وقع في النظم الاقتصادية والاجتماعية سواء
بسواء .

(١) من كتاب « أمريكا التي رأيت »

وكان هذا طبيعيًا ومستظرًا من نظم تقوم على تلك النظرة الخاطئة إلى الإنسان، وعلى الجهن المطبق بحقيقة الإنسان . فما لم تصح انطوة إلى الإنسان ذاته ، وحقيقة فطرته واستعداداته ، وعاية وحوده وحدود سلطانه . . . الخ ما لم تصح النظرة إلى هذا كله ، فلا مفر من التخبط والأرحح في كل ارتباطاته الأخرى . وبخاصة ارتباطاته الاقتصادية والاجتماعية . فهذه هروع من تلك وأثر من آثارها .

وهذا لدى بقره في المقرة السابقة هو مفرق الطرق بين التفسير الإنساني للتاريخ - وهو الذي يتفق مع التصور الإسلامي - والتفسير المادي والاقتصادي للتاريخ . وهو الذي تقوم عليه الماركسية .

ولا عرة بما يلح فيه الماركسيون من أن أدوات الإنتاج هي التي تنشئ نوع الارتباطات في المجتمع ، وأن هذه لارتباطات - وحدها - هي التي تنشئ لنظرة إلى « الإنسان » وإلى « الأخلاق » وإلى « الدين » وإلى « المبادئ والقيم » والآداب والعادات والتقاليد » وإلى « الحكم » وإلى « النظم » وإلى « الأوضاع » وإلى سائر الارتباطات في حياة الإنسان

لا عرة هذا الإلحاح في إيراد العوامل الاقتصادية - وحدها - بتفسير كل شيء في حياة الكاش الإنساني ، والمجتمع الإنساني ، وعسارها هي - وحدها - إلهًا قادرًا على التعبير والتشديد ، فاهرًا لاند للإنسان إزاءه من الخصوع «للمجتمعية» والتسليم .

لا عرة هذا الإلحاح ، فإن هو إلا لوثة من لوثات « الماركسية » الكثيرة . وقد تهللت « الماركسية » على كل حال - « كظنية » - تحت مطرق الواقع ، ودوافع الفطرة ، وحقائق الدوافع البشرية الأصلية ، واحتاجت إلى التعديلات المتوالية ، عى يد ليبين وستالين وحروشوف وهم يسمونها « تعديلات » وهي

في الواقع « عدولات » عن أسس النظرية مع الاحتفاظ بالشارة والإطار . وهم يعللون هذه العدولات ، بأن الماركسية مذهب متطور . . عني حين أن ليس هناك مذهب ، ولا نظرية ، ولا دين ، يمتشد باحتميات احتشاد الماركسية الأولى ، كما وضعها ماركس وأنجلز . فدعوى « التطور » بعد الماركسية ، دعوى جديدة جدًا ، لمواجهة مطارو المطرة ، ومطارق الواقع ، وجهاد « الذات الإنسانية » في روسيا والصين ، رسائر اللاد التي أخضعتها الشيوعية ، لإثبات وجودها على الرغم من الثقل لساحق للنظام السولسي الرعيب .

وبحق لا نناقش « الماركسية » ها . ولكننا نستعرض فقط بعض مظاهر التخبط والأرجحة في النظم الاقتصادية والاجتماعية التي قامت مستندة إلى الحيلة المطلقة بحقيقة الإنسان ونظرته وميوله واستعداداته وحاجاته الحقيقية . بسبب أنها قامت بمعزل عن منهج الله اعليم بحقيقة هذا الإنسان ، وبما يصلح له وما يصلح له من النظم والأوضاع

لقد سارت الأوضاع تتأرجح بين التطرف هت والتطرف هناك على نفس لطريقة التي سارت بها في البطرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته ، وبسطرة إلى المرأة وعلاقات الحسين بل أشد تأرجحًا وأكثر ضحايا ، وأشد بلاءً ومد كن الاقتصاد وتوزيع السلطات في المجتمع مجالاً لصراع أشد ، يبلع حد البرحشية الرعية في كثير من الأحيان . ومد كانت معاحة الخطأ الحامح تأتي خطأ آخر حامح في الحاد الآخر . ولا يعتدل بها الميراب قط في يد الإنسان ، اجاهل نفسه ومقدراته وحاجاته الحقيقية ، الخاضع لشهواته وضعفه وهواه ، الشارد في داته عن الله ومهجه للحياة .

والماركسية والتفسيرات المادية عمومًا تخرج الإنسان من حساسها وهي

تسجل هذه التقنيات والأطوار . والماركسية بصفة خاصة تقيم لاقتصاد -
وحده - إلهًا متفردًا متصرفًا في أقدار « الإنسان » بعيدًا عن إرادة الإنسان
وفطرته واستعداداته وطاقاته . فهي دائمة حاضنة لحتمية العوامل الاقتصادية ،
أو ناشئة من هذه العوامل الاقتصادية .

وهي تعزو هذه التقنيات والأطوار إلى تغير أدوات الإنتاج ، دون تعير هذه
الأدوات « يحتم تعير الارتباطات في المجتمع ، ومن ثم يوحد « التناقض » بين
الوضع القائم ، وما يتطلبه تعير أدوات الإنتاج من تغير في الروابط الاجتماعية
والاقتصادية ، فتقع الثورة أو الانقلاب لإنشاء وضع جديد ملائم لتغير
أدوات الإنتاج . والإنسان لا دور له في هذا كله ولو كان هو الذي يعير
أدوات الإنتاج بيده أو بفكره فهذا ما يسكت عنه ماركس . و كأن أدوات
الإنتاج هذه إله آخر . ولكنه إله يعير نفسه ! فتشأ « حتمية » التغير في
الأوضاع الاجتماعية تبعًا لتغير في ذات الإله !

ما علينا فنحن كما قلنا لا نناقش الماركسية هنا ، ولكن نستعرض
فقط الأرححة في حياة الناس الشاردين من الله غير أننا سناقش فقط هذه
« الحتمية » والأسباب الواهية التي قامت عليها في الفلسفة الماركسية .

إن الماركسيين يعرفون التقنيات والأطوار كلها إلى تعير أدوات الإنتاج . ومن
ثم تغير الأوضاع الاجتماعية وهم يعدون هذه الأطوار إذن « حتمية » في خط
سير التاريخ . . فعلام يستندون ؟

هم يستندون - كما يقول كرك ماركس - إلى الواقع التاريخي .
وعلى الرغم مما في ادعاء فرد واحد - أو حتى مجموعة من الأفراد - أنهم
يحيطون علمًا بكل وقائع التاريخ ، وبكل العوامل المستترة والظاهرة في هذا
التاريخ ، وبكل دوافع « الإنسان » في جميع الأجيال والأزمان ، لا في الماضي

فقط ، و لكن في احصاء وى المستعمل كذلك - بينما العلماء المتخصصون في القرن العشرين يعترفون بجهالتهم لمطابقة بالإنسان ، وبأنهم يقفون على عتبات المجهول . . على الرغم من في هذا الادعاء العريض من «خرافة» لا يجوز أن يقوم عليها «رأى أو فرض» ، فضلاً عن أن يقوم عليها «مذهب» ! فإن الماركسية قد نذت كل رأى آخر يمكن أن يخالف هذا المذهب وقامت بالمذهب الرهينة للملايين من البشر بحرد أن يكون هم رأى آخر في تاريخ الإنسان . أى نفس ما فعلت «الكنيسة» شيئاً منه ، وهى تحرق العلماء الذين يرون رأياً آخر في «خرافاتنا المقدسة» وهى لا ترتفع كثيراً على «خرافات الماركسية المقدسة» . «العلمية» . في هذا الزمان !

ولكن الماركسية - «المذهب العلمى» - تريح نفسها من متاعب «الدراسة العلمية» لكل عوامل التاريخ ، ولكل دوافع الإنسان . وهى تختار عنصراً واحداً من عناصر الحياة - عنصر الاقتصاد - وتعتريه - كما قلنا - إلهاً ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ولا حيلة للإنسان في «حتمية» ما يراه !

غير أنها لا تدرس آثار قدرة هذا إله في تاريخ العالم . . إنها تدرسه في تاريخ أوروبا . ثم تعمم حتمية إرادته على الأرض كلها . وهذه كذلك إحدى تحريفات «المذهب العلمى» القائم على الاستقصاء !

ومن ثم يعتبر الماركسيون أن تاريخ أوروبا هو تاريخ العالم ، وأن إله الاقتصاد الذى حكم تاريخ أوروبا هو الذى يحكم تاريخ العالم ويقررون حتمية تلك الأصوار في تاريخ العالم اسساراً إلى ما وقع في تاريخ أوروبا . من وجهة نظرهم ، التى تسخى كل العوامل في تاريخ البشر ، لتقرر وحدانية إله الاقتصاد بالعمل !

وهم - طبعاً - لا يمكن أن يحظر على بالهم أنه على فرض أن هذا التاريخ

صحيح ، وعلى فرض أنه تاريخ العالم لا تاريخ أوروبا . فإن هذه الأطوار
تأرجحت هكذا بين طرفي العلو دائماً ، ولم يعتدل بها الميران أبداً ، ووجدت
فيها « اساقصات » المتصارعة ، نظراً إلى أنها قامت على صاهج من صمغ
الإنسان ، الجاهل بنفسه ، وبحاجاته الحقيقية ، المثقل في أحكامه واحتيراته
وتصرفاته بآثار هذا الخهر ، وبالضعف البشري ، والهوى المتقلب والشهوات
العمياء . وأنه في الوقت ذاته لم يستعن بمنهج الله ليضبط هذه الشهوات ،
وهذا الهوى ، وهذا الضعف ، وهذا الخهر ، بصايط ثابتة ، يخفف على
لأقل من هذه الابداعات الشريرة على غير هدى في كل اتجاه .

لا يمكن - طبعاً - أن يخطر هذا على بالهم . وهم يقيمون فلسفتهم
الاقتصادية ابتداء على أساس المذهب المادى الذى ينكر أن يكون هذا الكون
إله . وهم يسحرون أشد السخرية عن يعتقدون بوجود الله . . .

ونحن الدين عصمنا الله من الشرود من كف الله - لأنه لم تكرر له كنيسة
تطاردنا باسمه ، فشرد معها ومن إلهها وديها ، ومضى كالذين يقول الله
عنهم : « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » .

ونحن الدين عصمنا الله من أن يكل إلى العدم الإنسانى - أو بتعبير العلماء
إلى الخهر الإنسانى - مهمة وضع المصاحح الأساسية للحياة الإنسانية ، بل
أمدد بقواعد المصيح المبر . القائم على لعلم المطلق بفطرة الإنسان
واستعداداته وطاقاته وحاجاته الحقيقية

نحن - وهذا فصل الله علينا - جديرون أن ننظر إلى المسألة نظرة أخرى .
وأن بأحد الأمور بالرفق واهدوء . والطر « العلمى » الصحيح ، الذى يتمشى
كل حواش المسألة ، ولا يهش منها نهشة ويجرى شاردًا من لكنيسة ، وإيه
الكنيسة ، ودين الكنيسة ، وتصورات الكنيسة .

وعندئذ ندرك مظاهر التحط والتأرجح ، والأسباب الحقيقية الكامنة وراءها . وتكون لنا نظرتنا المستقلة ، ونظرياتنا المستقلة ، ومناهجنا المستقلة القائمة على دراستنا المستقلة ، المستمدة من منهج الله وهداه . ومن ثم نرى أن هناك اختلافًا جذريًا أصيلاً بين منهجنا ، وكل المناهج السائدة ، وبين منهجنا وكل المذاهب المعروفة ، وبين طبيعة نظرتنا لواقع الحياة البشرية وللتاريخ الإنساني وكل الطرائف القائمة ، وبين تفسيرنا للحياة والتاريخ وكل تفسير آخر . وبين كل عنوان اتخذته الأنظمة الاجتماعية البشرية وعنوان نظامنا « الإسلامى »

وليس هذا البحث المحمل بمجال هذه الدراسة ، فضلاً على أنها في حاجة إلى كفايات متنوعة ، تتجمع في تنظيم واحد ، وتستوفى الرمز اللازم لهذه الدراسة الصخمة ، في ظروف وأوضاع جادة في الأخذ بمنهج الله . وأمام عرصة حقيقية لتنفيذ هذا المنهج ومن ثم تنجبه إلى هذه الدراسة لتطبيق نتائجها في عالم الواقع ودينا لتعامل لا لمجرد البحث والدراسة والثقافة ! فالمنهج الإسلامى في التفكير والنظر منهج واقعى حاد ، لا يسمح لأصحابه أن يدلوا بجهودهم لمجرد البحث والدراسة والثقافة ، إنما هم يبدؤونها لتطبيق ، ولتصبح واقعاً من أواقع ، وذلك حين يكون هناك اتجاه حاد لتحكيم النظام الإسلامى كله في الحياة !

إنما المجال في هذا البحث المجلد مقصور على استعراض بعض التخطيطات في الحياة الأوروبية - في هذا الجانب - هذه الحياة التى طغت - مع الأسف - على رقعة الأرض كلها في هذا الزمان . ولتى أصبحت مفهوماتها وتفسيراتها وشاراتها وعنواناتها ومصطلحاتها هى التى تغمر رقعة الأرض كلها ، أو تندس في ثنايا التفكير والتعبير والتطبيق في كل مكان !

من الرق الرومانى الشهير . إلى الإقطاع . إلى الرأسمالية . إلى الماركسية
والبارية . . عمو في طرف يعالجه علو آخر في الطرف الآخر . وظلم لطبقة
يعالجه ظلم آخر لطبقة أخرى واعتداء على « الإنسان » وخصائصه
الأساسية في نظام ، يعالجه اعتداء على « الإنسان » وخصائصه الأساسية في
النظام الآخر . ولا يعتد الميزان مرة واحدة بالعدل بين الطبقات كلها ،
والتناسق بين طاقات لإنسان كلها ، وإتاحة المجال « للفردية » التى يتميز بها
كل فرد ، مع رعاية حق « الجماعة » الممثلة لخصائص الأفراد جميعاً ، في تناسق
واعتماد . الأمر الذى لا يتوافر إلا في منهج الله

ونستطيع أن نتجاوز - هنا - عن عهد الرق الرومانى - على سبيل الاختصار
في هذا البحث المجمل الذى يشير ولا يفصل - وبدأ فقط من عهد الإقطاع . .
في استعراض مجمل عام ، يناسب طبيعة هذا البحث المحمل العام .



ويجب - بتداء - أن نميز بين الخصائص الأساسية المميزة للإقطاع بمعناه
الاصطلاحي التاريخي الذى عرفته أوروبا ، وتلك المظاهر الثانوية السطحية
التي ربما تكون قد وجدت في أنحاء أخرى من الأرض في عصور مختلفة .
فهذا التمييز ضرورة من الناحية العلمية ، ومن الناحية الشعورية كذلك .
إن نظام لإقطاع في أوروبا لم يكن مجرد وجود ملكيات كبيرة ، ولكنه كان
مصحوباً بخصائص هذا النظام الأساسية :

وأخص خصائص هذا النظام كانت .

١ - تعبئة الملاحين للأرض ، حيث كان وضعهم فيها كوضع الات الرعاة
وحيواناتها ، وانتقالهم - مع الأرض - إلى المالك الجديد كما تنتقل الآلات
والحيوانات - ولو كانوا لا يباعون كما هو الحال في نظم الرق . ولكن

تبعيتهم للأرض تحرمهم حق الانتقال منها إلى أرض أخرى ، كما تحرمهم
بطبيعة الحال حق اختيار حرفة أخرى فردية مستقلة .

٢ - كما كانت إرادة السيد « الشريف » هي القانون في قطاعيته . فهو الذي
يشرع للأقان (رقيق الأرض) وهو الذي يحدد علاقاتهم به وبالأرض ،
وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

وهذا هو الإقطاع كما عرفته أوروبا وكما نارت عليه أيضًا !

وهاتان الخاصيتان تعتران العلامتين المميزتين لهذا العهد البغيض

وقد ظلت أوروبا تروح تحت وطأة هذا النظام الفطبع ، الذي تهدر فيه قيمة
الإنسان - بتداء - يجمعه تائمًا للأرض كالمشوية وأدوات الزراعة ، ينتقل معها
إلى المالك لحديد ولا يملك أن يحبس بكسوته « الإنسانية » مستقلة عن
الأرض . ولا يملك أن يعادها - ولو إلى إقطاعية أخرى - إلا اعترافاً -
بحكم القانون - ووحب القصر عليه ورده إلى الأرض التي تنبعها (وإن كان
هذا القانون لم يعد ينفذ في أواخر عهد الإقطاع في الحالات التي كان المالك
الذي أوى إليه الهاربون إلى إقطاعيته يرى أن من مصلحته عدم ردهم إلى
سيدهم وأرضهم !) . وتهدر فيه كرامة « الإنسان » مرة أخرى بجعله أسير
إرادة الشريف ، واعتبار هذه الإرادة هي القانون وليس أحط من وضع
يكون فيه الإنسان حاضماً لشرعية هي مجرد إرادة إنسان مثله ولو كان هو
السيد الشريف !!!

طلت أوروبا تحت وطأة هذا الصدام المظيع ، حتى انساحت جموع
الصلبيين في الشرق الإسلامي ، واحتكوا بالمجتمع الإسلامي ، وعرفوا عن
كتب أوضاع حياة الناس فيه ، ورأوا نظاماً آخر غير ذلك النظام المظيع .
رأوا شرعية يتحاكم إليها الناس جميعاً ، حاكمهم ومحكومهم ، غنيهم

وفقيرهم ، مالكتهم ومعدمهم ، صاحب الأرض والعامل فيها على السواء
شريعة ليست هي إرادة السيد صاحب الأرض ، وليس هي إرادة الأمير
كذلك ولا السلطان . إنما هي شريعة تقيهم جميعاً من عند الله . ويتولى
الحكم بها قضاة طالما وقفوا بها في وجه الأمراء والسلاطين ، عندما كان
أحدهم يهيم بظلم الرعية أفراداً أو جماعات وقد ظهر في هذه الفترة بالذات
أئمة أقوياء وقفوا مرات في وجه سلاطين الممالك ، وكان لوقفاتهم صداها
الذي تتدفقه الجماهير في الوطن الإسلامي ، وتعرفها جموع الصليبيين الذين
يحتكون بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان .

وعلى الرغم من كل ما كان قد وقع في المجتمع الإسلامي في هذا الوقت من
انحرافات ، وعدم مراعاة لشريعة الله في بعض حرثيات الحياة . فإن المسافة بين
هذا المجتمع والمجتمع الإقطاعي الذي جاء منه الصليبيون كانت بعيدة بعيدة
، أو الناس أحراراً ، لا في الانتقال من مزرعة إلى مزرعة ، ولا في الانتقال
من مدينة إلى مدينة ، بل في الانتقال خلال الأقطار الإسلامية في أطراف
الأرض إذ كانت كلها وطناً إسلامياً واحداً متصلاً لا تقوم فيه الخواجز دون
أفراد المسلمين - حتى ولو تعدد الأمراء والسلاطين .

ورأوا الناس أحراراً في اختيار المهن حسب مراحهم ورعتهم واختارهم . لا
يحد من حريتهم في هذا قيد ما .

ورأوا أصحاب الحرف يتجمعون فيما يشبه النقابات ، حيث يكون لكل
حرفة (رئيس) وتقوم العلاقة بين أصحاب الحرفة لواءة على استعاون والمودة
وكل هذه الظواهر لم يكن لها بعد وجود في المجتمع الأوروبي الإقطاعي
الذي جاء منه الصليبيون

نعم إنه ربما وجدت بعض المكنيات الكبيرة في المجتمع الإسلامي

حينذاك . ونكسها لم تكن تشي نظام إقطاع كالأدى عرفته أوروبا لأنه لا « شريف » ولا « أمير » ولا تنعية للأرض تلصق « الألقاب » بها ، ولا إرادة للسيد هي القانون ! بل القانون شريعة من عند الله . . وهذا لم يكن بشي نظام إقطاع بالمعنى الاصطلاحي الفني التاريخي لنظام الإقطاع . الذي عرفه أولئك الصليبيون

وفي حلال الفريين للذين اشتعلت فيهما نار الحروب الصليبية ، طردًا وعكسًا ، كانت الانطباعات والتأثيرات بالمجتمع وأوضاعه تفعل فعلها في نفوس عشرات الألوف من الصليبيين الذين شاهدوه ، ومئات الألوف بل الملايين ممن وراءهم ، ممن سمعوا قصص المعائدين من هناك .

وكدت تتحمر في المجتمع الأوروبي هذه الانطباعات والتأثيرات ، إلى جانب العوامل المحلية الأخرى (التي يعتمد الأوروبيون عامة والماركسيون خاصة أن يجمعوها وحدها هي العوامل المؤثرة) من نشأة الحرف ، والمدن التجارية ، وطلقة التجار ، والامتيازات التي حصلوا عليها في مقابل تمويل الأمراء في حروبهم الصليبية ، وفي حروبهم مع بعضهم البعض . . . إلى آخر العوامل التي أدت إلى الثورة على نظام الإقطاع .

لقد كان نظامًا حائر فظي . امتهنت فيه كرامة « الإنسان » إلى أقصى حد . ولم يكن يفرقه عن نظام الرق إلا أن رقيق الأرض فيه لا يباع ، ولا يقدم للمباع !

وكان أحد التيارات الإسلامية في الأرض ، هو الذي نحر في أساسه . ثم جاءت العوامل الأخرى المحلية فصغت عليه ، فانهار

وكرر فعل لإهدار الوجود الفردي والحرية الفردية ، بل لإهدار الوجود الإنساني ، قام النظام الرأسمالي على أساس من إطلاق العنان لنشاط الفرد إلى

غير حد، وللحرية الفردية من غير قيد ، ولاعتبار الصالح الفردى هو الصالح الأعلى . .

وسرت هذه الاتجاهات في المجال الاقتصادي إلى أقصى حد، إذ ترك كل شيء في هذا المجال لنشاط الأفراد ورغبتهم وصوالجهم ، دون أى اعتبار للمجتمع أو للأخلاق ، أو لأية اعتبارات أخرى يمكن أن تحد من الحرية الفردية ، أو من تحقيق الصالح الفردى ، كما يترأى للفرد أن يحققه .

وبسما قام هذا الاتجاه في مجال الاجتماع والاقتصاد - في أول الأمر - بدور المخلص للجهير من قضية الإقطاع الفطبعة ، وأتاح للمواهب لفردية وللشباط الفردى أن تصل إلى قمة الإبداع والحركة والطلاقة ، وأن تنح الجهد - في سبيل تحقيق الصالح الخاص - إلى استثمار كنور الأرض، وفوى الطبيعة للصالح البشرى العام . . . إلى آخر الخدمات لكثيرة التى أداها برور الصام الرأسمالى ، كدور تقدمى بالقياس إلى النظم الإقطاعى فى أوروبا

يسمى قدم هذ الاتجاه هذه الخدمات ، وأدى لنشر هذه الخيرات ، كان عامل التطرف فيه ، وكونه رد فعل لخطأ آخر ، وعلاجاً لداء بداء حديد - أدى هذا كله إلى انطلاق السعار « الرأسمالى » الذى يبدأ من النظام الربوى اللعين الذى صاحب شاة النظام الرأسمالى، وتعغل فيه بحيث أصبح هو أساس الاقتصاد الحديث ، وينتهى إلى اعتبار جميع لقيم الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية هراء لا معنى له إذا شاءت أن تتدخل في قواعد الاقتصاد، وأن توقف هذا السعار المحنون ، الذى لا ينتهى إلى تضخم رءوس الأموال والمصالح الرأسمالية على حساب الصبقات لمنتجة فحسب . . ولكن يصف إلى هذا المظهر الشبح ما هو أبشع . ذلك أن يصح العمل والصنع والتجار، وأصحاب المصانع أنفسهم ، مجرد أجراء للسياقة الذين قاموا بتأسيس

البوك، وجذبوا إليها أموال حملة الأسهم والمودعين، يستعلوهم لصالحهم، إذ تعود عليهم حصيلة تشغيل هذه الأموال - ما عدا النصيب الضئيل الذي يصرف لحملة الأسهم، وللمودعين في بعض الحالات - بينما يكبد العمال والصناع والتجار والمستهلكون وأصحاب المصانع أنفسهم كذلك، للوفاء بالوفاء الربوية التي تعود في النهاية على الطعمة لقليلة من الممالين الذين يمولون الصناعة والتجارة عن طريق الإقراض، ويقضون - وهم قاعدون - ثمرة كد الجميع في نهاية المطاف.

إن بلاء النظام الرأسمالي لا يتمثل فقط في لمظهر الضرر الذي يوجه إليه النقد، وهو سحير الشعوب والحكومات لصالح أصحاب رؤوس الأموال فيجب تحديد الطبقة التي تسحرها هذه الشعوب والحكومات. وهي طبقة مستترة وراء أكداش من النظريات الاقتصادية، ووسائل الدعاية وتنمويه، والأساتذة الكبار والجامعات والقوانين واللوائح، في جميع أرجاء الأرض. طبقة المرائين... الطبقة التي تؤسس بوك الإقراض، وتمتد سندات التأسيس. طبقة البيوت لمالية القابعة هناك في الظلام، حيث إبيها حصيلة الجهد البشري كله. بها فيها جهد أصحاب المصانع ولتجار، الدين يوسمون بأنهم الراجوريون الكبار... والنظام الربوي هو المسئول عن هذا البلاء. هو المسئول عن عودة حصيلة الجهد البشري كله إلى هذه الشرمة الصغيرة من أصحاب البيوت المالية، ومؤسسي البوك وحلة سندات التأسيس.

كذلك صاحب النظام برأسه لا يحلل الخلق... أولاً تحت تأثير النظريات المختلفة الاتجاهات سواء بصريات حرية الفردية التي لا يجوز أن يحدّها حد أو قيد. أو نظريات حيوانية الإنسان، ومادية الكون، والتفسير

المادى لاقتصادى للتاريخ . . وكلها - كما تقدم - مستقة من حركة الهروب من الكيسة ، والشروء من كل تفكير دينى على الإطلاق .
ولكن هالك كذلك عاملاً آخر كما وراء هذه سطرقات كلها ، و النظام الربوى .

إن الذى يقترص بالفائدة لكى يقيم مشروعاً من مشروعات ، لابد أن يفكر فى أربح المشروعات التى تكفل تغطية الفوائد الربوىة ، وتكفل له فائضاً من الربح . والمشروعات التى تقوم على إثارة العرائر الجسدىة وتلييتها ، والتى تقوم على إثارة الميل إلى الترف وتلبته هى أدنى المشروعات إلى الربح ، فى عالم متجرد من اهوائف الدينىة والخلقىة . .

ومن ثم يصح من لسياسة لثابتة لأصحاب المال (الصيارفة وبيوت المال ومؤسسى البنوك وحملة السدات لتأسيسية) ومعظمهم من اليهود فى العلم ، كما يصح من سياسة الكثيرين من أصحاب المشروعات الذين يقترضون من هذه المؤسسات بالربا أن ينشروا فى المجتمع الإنسانى حالة من الانهيار الخلقى ، ومن الترف ، ومن التفاهة ، ومن فدارة الاهتمامات ، تسمح بأن تروح فيه مشروعات الترفىة الجسدىة فى شتى صوره ، ومشروعات الترف كذلك واستاع إلى أقصى حد ، بدون حد من دين أو حق ولا قيد .

وهكذا تصح صناعة الأفلام المستهزئة ، وصلالات اعرض المهيجة ، والصحافة الداعرة ، وتجارة الرقى ، والخمر والمخدرات . كما يصح صناعة أدوات الترف والرىة وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر والحفلات والسهرت إلى آخر مظهر الانحلال والترف التى تقوم عليها مذت الصاعات فى العالم . تصح هذه كلها فى حدمه الرأسمالية (أى القاعدة الرأسمالية الممولة) . وتحتاج إلى فلسفات وبطريات وأساتدة وأدباء وصين

ومشرعين وأنظمة حكم تسمح وتحمى وتشجع هذه الصاعات . ويكون لرأس المال في هذه الأنظمة ، هذه القوة التوجيهية ، لأنه هو وحده الذى يتحكم في المجتمعات اللادينية ، مما لا يكون له حين تخضع الحياة كلها - والمال معه - لمنهج الله في الحياة . فرأس المال لا يكون له اتوجيه المؤدى إلا في المجتمع الذى لا يهيمن عليه منهج الله ، حيث ينفرد رأس المال بالهيمنة . وأما حين يكون منهج الله هو المسيطر ، فإنه حينئذ سيوجه المجتمع وسيوجه المال المتداول فيه وجهة نظيفة ، ولن يسمح للمال أن يكون أداة بغى أو أداة فساد .

إنه ليس لمال بذاته هو الذى يفسد حياة المجتمع إنما هو لمنهج والمذهب والنظام والتصور لذى يحكم مجتمعاً من المجتمعات . .

ولست هذه سوى لمسات سريعة جداً للحانة الشعة التى أسأها لنظام الرأسمالى - بينما كان يعالج التطرف بتطرف آخر ، ويعالج الداء بداء آخر ، ويتأرجح بين طرفي الكبت والحموح ، كالحصان الذى يجمع من شدة اللجام ! ولا يملك أن يدخل في تفصيل المعايير الاقتصادية الى أنشأها لنظام الربوى الذى قام على أساسه النظام الرأسمالى . ولا أن نتحدث عن أثر هذا النظام في دورات الانكماش والأزمات الدورية ، وويلات البطالة والكساد التى تصاحب هذه الدورات .

ولا يملك أن ندخل في تفصيل ويلات الاستعمار التى اقتضاها لنظام الرأسمالى ، في أثناء البحث عن أسواق عند الصاعات الكبيرة بالخامات ، وفي الوقت ذاته تستهلك ما تنتجه هذه الصاعات

كما لا يملك أن يدخل في تفصيل ويلات الاستعمار الحديد ، الذى لا يبدو في صورة الاحتلال العسكرى لقديمة وإنما يبرز في صورة البحث عن أسواق لرءوس الأموال الفئصة في الدوب الرأسمالية ، والتي لا تجد لها محالاً

للعمل في بلادها بسبب النشبع الصناعى . ومن ثم تبحث عن بلاد متحلفة
«تتصبع» برعوس الأموال الأخرنية ، كى يعود على هذه الأموال الفائض
الربرى ولا تبقى معطلة في بلادها التخمة هذا الاستعمار الذى يتصارع
الآن في إفريقيا بالذات ، على مرأى ما وسمع ، في كل مكان .

لا نملك الدخول في تفاصيل هذه السواحى المتعددة لسلاء النظام
الرأسمالى لأن هذا أمر يطول ، ولا يتفق مع طبيعة هذا البحث المجمل .
ويمكن الاجتزاء بالإشارة إليه في صدد تقدير التحبط في خطوات الشرية ، في
مجال النظم الاقتصادية والاجتماعية . وهى شاردة من الله ، ومن منهجه للحياة .



ثم تتمثل الطائفة الكبرى في « النظم الجماعية » التى طقتها أوروبا في
الشرق أو في الغرب ، على اختلاف أسسها وأشكالها ، والتى جاءت كرد فعل
للجموح الشرى في « النظم الفردية لرأسمالية »

به جموح حديد ينشأ من رد الفعل لجموح قديم . وداء حديد تعالج به
الشرية من داء قديم وتحطيم لخصائص الإنسان لأسسية في جانب ،
لإنقاذه من تحطم خصائصه الأساسية في جانب آخر .

وكلها تجتمع عند دعوى تمليك الموارد العامة ووسائل لإنتاج إما للشعب
كثأرية وإما لطبقة من الشعب كالماركسية . وحكاية تمليك هذه الموارد
والوسائل للشعب أو طبقة من الشعب ، في تلك الأنظمة ، حكاية لا يدرك
أحد كيف يمكن تحقيقها عملياً . .

وفى هذا يقول «كاربوهرت» المعجى في بحثه : « الشيوعية نظرياً وعملياً » . .
« الشيوعية » وفقاً للنظرية لكلاسيكية على الأقل - ترمى إلى إقامة مجتمع
بلا طبقات ، يكون فيه جميع وسائل لإنتاج والتوزيع والتبادل ، ملكاً

للجمهور، وتختص منه الدولة ، التى تعد أداة إرغام واضطهاد . . . ولكن تقوم مع هذا ، بين الثورة التى تلغى النظام الرأسمالى وبين هذا المجتمع الشيوعى ، فترة انتقال تعرف باسم « ديكتاتورية الطبقة الكادحة » وهذه هى المرحلة التى تزعم روسيا أنها تمر بها الآن . . . ومن المهم أن نلاحظ أن الروس يسمونها « الاشتراكية » (لا الشيوعية) . وأن الجمهوريات التى تؤلف الاتحاد السوفيتى يطلق عليها . « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » (لا الشيوعية) ، لأن الشيوعية مرحلة أعلى ، م زالت فى المستقبل . والمعروف أن مقياس المجتمع الشيوعى هو أن يكون خاضعاً لمبدأ . « من كل إنسان حسب قدرته ، ولكل إنسان حسب حاجته » ولكن إذا أخذنا مبادئ ماركس فى البداية ودأب ستالين على تكراره . وجدنا أن مساواة كهذه مستحيلة فى الدولة الاشتراكية . وهذا يجب أن يتحكم فيها مبدأ « من كل إنسان بحسب قدرته ، ولكل إنسان بحسب عمله »

. « وحدا ليين وسباين حدو ماركس وأطلقا تسمية « الاشتراكية » على النظام الجديد ، الذى سينشأ على أنقاض لرأسمالية . ولهذا م ترد فى الدستور السوفيتى الذى صدر فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٦ أية إشارة إلى « الشيوعية » إلا فى المادة ١٢٦ التى أشرت بالتحديد إلى « الحزب الشيوعى » ، ووصفت الاتحاد السوفيتى بأنه « دولة اشتراكية لعمال والملاحين » . وقد قال ستالين فى التقرير الذى أصدره عن الدستور فى ٥ ديسمبر : إن الشىء الوحيد الذى تم تحقيقه إلى الآن هو « الاشتراكية » ورفض تعديلاً بإدراج هذه العبارة فى الدستور ، وهى « إن العناية النهائية للحركة السوفيتية هى خلق مجتمع شيوعى نحت » وقال : إنه ليست لهذه العبارة صلة مباشرة بالدستور ، الذى يسعى إلى مجرد تدشين المكاسب التى سم الظفر بها فعلاً . . .

«وسينكر الكثيرون من الاشتراكيين - بلا ريب - حو ستالين في وصفه هذا
للنظام السياسى والاقتصادى السوفيتى لحالى ولكما نجد فيها يتعلق
بالغايات التى يسعون إلى تحقيقها ، أن عدائى « الشيوعية » و « الاشتراكية »
قاستان بتعديل والتعير في الواقع وهو أمر يمكن لأى إنسان أن يكتشفه ،
إذا راجع قاموس « أكسفورد » لإنجيري . فإن جوهر لائين هو أن وسائل
الإنتاج يجب أن تكون ملكا للشعب ولكن لم يتسن لإنسان إلى الآن - أن
يكتشف كيف يمكن للشعب السيطرة على هذه الوسائل . ولهذا أسد أمر
الإشراف عليها باسم الشعب إلى الدولة أو أى هيئات أخرى تعين هذا
الغرض وهكذا أصبحت الملكية الشعبية تعنى في الواقع رأسمالية الدولة .
وكانت الاشتراكية السوفيتية أعظم تعير قوى مناسب لها وهذا فيه من الخير
لنا قبل البحث في الأساس النظرى للشيوعية ، أن نذكر أن اهدف
النهائى لها هو نفسه هدف الاشتراكية . وأد أى خلافات بين لائتين إنما
تكون على الوسيلة لا العاية فالاشتراكيون يرون أنهم يستطيعون إدخال نظامهم
والمحافظة عليه بوسائل ديمهراطية ، ولكن الشيوعيون يعتمدون أن ذلك
مستحيل » .

والكارثة المصادحة في الأنظمة الجماعية ، التى عرفتها أوروبا في الشرق وفي
الحرب - على اختلاف مسمياتها وأشكالها - هى محاولة إلغاء وجود الفرد ، في
حين أن الفردية عميقة في الكويز البيولوجى وبنائى في لتكوين العقلى
والنفسى للإنسان . واستخدم هذه الفردية بأقصى طاقتها في إطار يوجهها إلى
خير المجموع هو النظام المناسب لفطرة الإنسان . أما محاولة كبجها وقتلها
بشتى الوسائل ، في تلك الأنظمة ، فهى عملية تدمير تامة للجهار الإنسانى
ومن مقتضيات هذه « الفردية » ألا يكون التنظيم الاقتصادى بحيث يضع

كل شيء في يد الدولة فتصح - إلى حوار سلطاتها السياسية والقانونية - هي المالك الوحيد لموارد الإنتاج وأدواته ووسائله . وهي التاجر، الوحيد الذي يستورد ويصدر وسيع للأفراد . وهي « المفكر » الوحيد كذلك لأنها لا تسمح بالرأى المخالف ، ولا بالمناقشة لمبادئ الدولة وأفكارها ووسائلها . والخصائص الإنسانية العامة والخصائص الفردية الخاصة ، كلها مهددة بالدمار في مثل هذه الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الفطرة الشريفة لا تخضع طويلاً لمثل هذه المحاولات الجائرة على الطبيعة البشرية ، والكيونة الإنسانية . ومن ثم تضغط حتى تسحق هذه المحاولات شيئاً فشيئاً . وقد اضطرت الأنظمة الشيوعية (أو الاشتراكية كما تسمى نفسها) إلى التعديلات المتوالية ، التي هي في الحقيقة « عدولات » عن كثير من الأمس الرئيسية في المذهب . لأن ضغط الفطرة كان أقوى من أن تصمد له كل أجهزة الدولة وضغطها الساحق .



وحسب هذه الإشارات إلى التخطيط بين طرق المساغة في كل اتجاه ، وفي كل نظام، والترنح في خطوات الشرية ذات إيمن وذات انشمال ، وما صاحبه من مذابح رهينة ، ذهب فيها الملايين من الشرية ، ومن مداح كذلك للأحلاق والآداب الإنسانية ، ارتكست فيها الإنسانية في الوحل . وقد رأينا - في اختصار وإجمال - هذه التطور في الخواص الثلاثة الرئيسية لحياة الإنسان متمثلة في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته . وفي النظرة إلى المرأة وعلاقات الجسدين . وفي النظرة إلى الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية . وكانت هذه هي الصربية المادحة التي دفعتها أوروبا . ومن ورائها البشرية كلها مع الأسف - لشرودها عن الله ومهبحه في الحياة

حِصَانَةُ لَا تَلَا تُمِ الْإِنْسَانِ

إِن الْإِنْدَاعِ الْمَدَى فِي هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى يَدِ الْإِنْسَانِ . . فوق أنه ضرورة لحياته ولمو هذه الحياة ورقبها . . هو في الوقت ذاته وطيفة أساسية له ، يحقق فيها وجوده ، وينمي هيها ذاتيته ، ويدرب فيها استعداداته الكمية ، التي أودعها الله كينونته الفريدة المعقدة المركبة . فهو وحده من بين سائر الأحياء الذي يؤدي هذه الوظيفة عن وعى وقصد وإرادة . ثم هو - بعد هذا وذاك واجب يحقق به غاية وحده الكبرى . وهي الخلافة عن الله في الأرض : « إني جاعل في الأرض خليفة » . ويحقق بها العادة لله عن طريق هذه الخلافة ، والعمل فيها باسم الله ، استعداء رضوان الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوا »^(١)

ولكن هذا الإبداع المادي - بكل مدلولاته - من فلاحه الأرض ، إلى استحراح كسورها واستخدام طاقاتها ، إلى إنتاج المواد الاستهلاكية للاستمتاع بطيبات الحياة ، إلى ريادة الفضاء الكوني وما قد تتيسر ريادته من الكواكب . هذا الإبداع بكل مدلولاته يجب أن يكون في خدمة « الإنسان » ، فهكذا أراد له خالقه ، وهو يعبر أنه سحره ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه وأن يكون محفوظاً في هذا الإبداع وفي بناء الحضارة التي تقوم عليه ، تنمية

(١) يراجع تفسير سورة الماريات في كتاب : « في ظلال القرآن »

خصائص « الإنسان » خصائصه كجس يهراق عن المادة ويهراق عن الحيوان ، وخصائص أفرادها ، الذين يؤلف كل واحد منهم عالمًا خاصًا - كما أسلفنا - بفرديته البيولوجية والنفسية والعقلية . ولا يكون في طرائق الإبداع المادى ولا في بناء الحضارة التى تقوم عليه ، ما يناقض هذه الخصائص أو يدفنها ، أو يعرق سموها ، أو يحطمها ، ولا أن يهيبها كذلك ويحقرها ، ولا أن يجعل دور الإنسان في هذه الأرض دورًا ثانويًا أو تابعًا للإبداع المادى ، بأى حال من الأحوال .

وليس هالك تعارض إطلاقًا بين أن يظل « الإنسان » سيد هذه الأرض ، وأن تسمى خصائصه الجنسية والفردية . وتؤكد شخصيته كجس وكفرد ، وبين أن ينمو الإبداع المادى ويتحدد ويترقى

وليس لأمر أنه ليس هنالك تعارض - بحسب - بين هالك تساق بين هذا وذلك حين تستقيم النظرة إلى الإنسان ، ومركزه في هذا الوجود ، ودوره في هذه الأرض ، وخصائصه التى زود بها من لدن خالقه العظيم ، وواجهه الذى كله والذى خلق من أحله . .

ولكن صاعى هذه الحضارة الحديثة - ولو أنها حلقة من حلقات الحضارة الإنسانية غير منفصلة عنها في جذورها العميقة - لم يكن لديهم العلم بحقيقة هذا الإنسان وخصائصه كما أنه لم تكن لديهم لرغبة في احترامه وتكريمه لم يكن لديهم العلم ، لأن هذه الحضارة بدأت ومن خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، بسما الجهالة المطلقة للإنسان لا تزال قائمة حتى اللحظة . وليس هالك ما هو صحيح وثابت عنه ، إلا ما أخبر به عنه خالقه العظيم .

واحضارة لمادية الحديثة نشأت في حو الشرود من الكنيسة ، والنور من طلها ، ومن ظل الدين . . كن الدين

ولم تكن لديهم الرغبة ، لأن أية محاولة لتكريم لإنسان ، كانت ستدكر
 ممره الذي يعطيه الدين له . وكل شيء كان حائزاً في أوروبا ، لا أن نجى
 سيرة الدين . وأن تكون لهذا الدين أية علاقة بأوضاع الإنسان « المدنية »
 وبالطعم الاجتماعية والاقتصادية ، وبالعلاقات العمل وارتباطاته وطرائقه
 لنفسه ! بل كانت تتوافر عندهم الرغبة المصادرة والحرص البالغ ، على تحقير
 الإنسان ، وتديسه وتلويثه ، وإثبات حيوانيته وقذارته الجنسية من جهة ،
 وصالة دوره إزاء المادة وقوتها الخنمية ، ولاقتصاد وإرادته لقهرة من جهة
 أخرى . كأنها هم أعداء هذا « الجنس الإنساني » حريصون - في شناعة طاهرة -
 على إراره يتلطف في المستنقع ويتلطف بالأوحال . كل ذلك ليقولوا للكنيسة :
 خذى إهلك ودينك ، وخذى معها إنسانك هذا الذي تزعمين أن الله قد نفع
 فيه من روحه وادهى بعداً عن وعن حياتنا الواقعية !!!

وأيما ما كنت الملاسل التي أدب إلى هذه المأساة ، فإن الحقيقة الواقعة ،
 أن هذه الحصار الحديثة - ولو أنها قامت ابتداء على أسس الاتجاهات
 التحريية العلمية التي اقتستها أوروبا من لاندلس ومن الشرق الإسلامي ،
 النابعة ابتداء من التوجيهات القرآنية لتدبر التواميس واستغلال الطاقات
 والمدحرات في الأرض ، ومن روح الإسلام الواقعية الإنسانية ، إلا إنها حين
 انتقلت إلى أوروبا لم تتقل حدودها الفلسفية ، إنما انتقلت علوماً وطرقاً فنية ،
 ومناهج تجريبية . وصادفت ذلك « العصام الكد »^(١) بين الدين والبهية
 الحصارية . ومن ثم لم يلاحظ في بنائها هذا « الإنسان » المفروض أنه صانعها ،
 وأنها من أحله صنعت . وكذلك أصبحت لا تلائم هذا « الإنسان » بل
 تسحق حصائمه الأساسية التي تجعل منه هذا الكائن الفذ الفريد في الكون ،

(١) يرجع توسع فصل « العصام الكد » في كتاب « المستقبل هذا الدين » .

والتي بدورها لا يملك هذا الكائن أن يؤدي دوره كما أن إغفال بعضها في أي نظام اجتماعي أو اقتصادي ، وفي أية حضارة ، من شأنه أن يحدث الاختلاف في الكينونة البشرية ، ويقضي لا على الجوانب التي أغفلت فحسب ، بل كذلك على الجوانب الأخرى . نظرًا لأن الجهر للإنسانى كل مركب متاسق ، يعمل في الواقع كوحدة في كل نشاط يبذله ، ولا يوحد محزة، إلا في عالم التحوث العقلية والمعملية .



ونعود إلى الاقتباس من تقريرات الدكتور ألكسيس كارين عن هذه الحضارة وعن نشأتها ، وعن عدم ملاءمتها للإنسان ، وعن الخصائص الإنسانية التي تهملها أو تحطمها :

« إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائم . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعت الحقيقة ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ووعباهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا . . . (ص ٣٨) .

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية . إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ : الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف ، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبيع مستطاع من المال ^(١) . . . وقد اتسع نطاقها

(١) والمحال لا يختلف من ناحية أثر المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعامل إذا كان لإنتاج ملكاً للشعب أو لطبقه مه - أى للدولة - إذ طلت طريقة العمل ووحدة

دور أى تفكير فى طبيعة الشر الذين يديرون الآلات ، ودور أى اعتبار لتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحقادهم » . (ص ٤٠) .

« وهؤلاء البطريون يسون حضارات ، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان ، إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهولة للإنسان . إن نظم الحكومات التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم عديمة القيمة . . . فمبادئ الثورة الفرنسية وحيالات ماركس ولبين ، تنطبق فقط على لرجل الجمدين (غير الأحياء أو المتحركين) . فيجب أن نفهم بوصوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة . فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية » . . . (ص ٤٣) .

« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شىء . ولكن الواقع هو عكس ذلك فهو غرب في العالم الذى ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الحيات على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا . إننا قوم نعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً إلى الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها . ولكنها لا تدرك ذلك . إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيد بها العلم حوها . وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات - التى سبقتها - أوجدت أحوالاً معينة للحياة ، من شأنها أن تجمع الحياة نفسها مستحيلة وذلك لأسباب لا تزال هامة » (ص ٤٣-٤٤)

« ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التى وضعتها الإنسانية فى

الحصارة لعصرية ، فقد أحفقت هذه الحصارة في إيجاد رجال على خط من الذكاء والجراءة يقودون عبر الطريق الخطر الذي تتحدر فيه . لأن بنى الإنسان لم يسمو بالسرعة التي تشبها الأنظمة من عقولهم . ومن ثم فإن أكثر ما يعرض الأمم العصرية للخطر هو النقص العقلي والأدبي الذي يعاني منه الرعماء السياسيون» . . . (ص ٣٧) .

«إن العقل وقوة الإرادة والأخلاق ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً . بيد أن الإحساس الأدبي أهم بكثير من العقل . وحيثما يتعدم هذا الإحساس من أحد الشعوب ، فإن كيانه لاجتماعى كله يبدأ في الانهيار لطفى» . . . (ص ١٦٠) .

«إن الحصارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العصى وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب نبي الإنسان - إلى حد كبير - للنقائص الموحودة في حوهم السيكلوجى . إذ أن تفوق المادة ومبادئ «دين الصاعقة» حطمت الثقافة والجمال والأخلاق» . . . (ص ١٨٤) .

«يكاد المجتمع الحديث أن يهمل الإحساس الأدبي إهمالاً تاماً بل لقد كنا مظاهره فعلاً . . . فقد أشربنا جميعاً الرغبة في التحنص من المسئولية . أما أولئك الذين يعيرون الخبر من الشر ، ويعملون ويتحفظون ، فإنهم يطلون فقرء ، وينظر إليهم بضيق وتأفف . والمرأة التي أحببت عدة أطفال وأوقفت نفسها على تعليمهم ، بدلاً من الاهتمام الخاص بنفسها ، تعتبر ضعيفة العقل وإذا أدرج رجل بعض المال لزوجته وتعليم أولاده ، سرق منه هذا المبلغ بواسطة المالىين أصحاب المشروعات أو أخذته حكومة» . . . (ص ١٨٥) .

«إن المادية البربرية التي تتسم بها حصارنا ، لا تقاوم السمو العقلى فحسب . بل إنها تسحق أيضاً الشخص العاطفى ، واللطيف والضعيف ، والوحيد وأولئك الذين يحنون للجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال» . . . (ص ٣٧١) .

«إن امتنع نمو وحيوه استشاط العاصمى ، أو الجمالى ، أو الدينى ، يخلق أشخاصاً في مرتبة الدنيا ، دوى عقول صيقة مريضة . ولرغم من أن التعقيم العقلى يهبأ لأن لكل فرد ، إلا أنما رب شاهد أمثال هؤلاء الأشخاص في كل مكان . وعلى كل حال فإن لثقافة العالية ليست ضرورة لتحصص الشعور بالجمال ، والإحساس الدينى ، ولتنتج فنانين وشعراء ، ورجال دين ، وجميع أولئك الذين يتأملون مختلف وحيوه الجمال . وهذا الذى نقوله صحيح أيضاً بالنسبة للإحساس الأدبى وأصالة الحكم . . . وجميع ألوان النشاط هذه تكاد تكون كافية في حد ذاتها . . إنها لا محتاج إلى الاقتران بالدكاء اتحاد لكى تهين الإنسان استعداده لسعادة ، فيجب أن يكون نموها هو الهدف الأسمى للتعليم لأنها تهين التوازن للفرد . إنها تجعل منه ححرًا صلبًا في لصرح الاجتماعى ، ولا شك في أن الإحساس الأدبى ضرورى أكثر من الدكاء بالنسبة لأولئك الذين يعملون على زيادة الحصرة لصناعية (ص ١٦٨-١٦٩) .

«ويظل نذوق الجمال كامناً (مكبوتاً) في أغلب الأفراد ، لأن الحصرة الصناعية أحاطتهم بمناظر قبيحة كريهة حشنة . ولأننا تحولنا إلى آلات فالعامل يقضى حياته ، وهو يكرر الإشارات والحركات نفسها آلاف المرات في كل يوم . إنه يصنع قطعاً مفردة فقط ، ولكنه لا يصنع وحدة كاملة مطلقاً أى أنه غير مسموح له باستعمال عقله . إنه احصان الأعشى الذى يدور في دائرة واحدة طول النهار ليخرج الماء من الشر . إن الصناعة تحرم على الإنسان استخدام وحيوه نشاطه العقلى التى يمكن أن تجلب له قسطاً من المتعة كل يوم . . لقد ارتكبت المدينة الحديثة خطأ كبيراً دائماً بتضحية العقل في سبيل المادة . خطأ ترداد خضورته يوماً بعد يوم لأن أحد لا يثور ضده ، ولأن الجميع يتقبلونه بسهولة كما يتقبلون الحياة غير الصحية في المدن الكبرى والساحل في المصانع ومع ذلك فإن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائى

بالجمال في عملهم ، أكثر سعادة من أولئك الذين يتحنون لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك . إن الصناعة - شكلها الحالي - حرمت العامل من الانتداع والجمال وتعزى خشونة حصارها وكاستها - ولو حرقًا - إلى الكسب الذي يعاني منه في حياتنا اليومية ، التي لا نشتغل إلا على أبسط أشكال الاستمتاع بالجمال » (ص ١٦١-١٦٢) .

« يتجاهل المجتمع العصري الفرد ، فهو لا يحسب حسابًا إلا « لبنى الإنسان » فقط . إنه يؤمن بحقيقة « الكونيات » ويعامل الناس كخلاصات . ولقد أدى اضطراب الأمر فيما يتعلق بالفرد ، وبينى الإنسان ، إلى وقوع المدنية الصناعية في غلطة جوهرية وهي معاملة الناس على أساس قواعد مرسومة . فلو أننا كنا جميعًا متساوين لأمكن أن نرى ونعيش ونعمل في قطعان كبيرة أشبه بقطعان الأغنام بيد أن لكل منا شخصيته الخاصة ولا يمكن أن يعمل كرمز» . . . (ص ٣١٨) .

« لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة حسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالًا تامًا . ولقد ترك الأمهات أطفالهن بدور الحضنة ، حتى يستطيعوا الانصراف إلى أعمالهم ، أو مطاعمهم الاجتماعية ، أو مبادلتهم ، أو هوايتهم الأدبية أو الفنية ، أو للعب الريدج ، أو ارتياد دور السينما . . . وهكذا يضيعون أوقاتهم في الكسل ، هم مسئولون عن احتفاء وحدة الأسرة وجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبير ، فيتعلم منهم أمورًا كثيرة . . . إن الكلاب الصغيرة التي نشأ مع أخرى من نفس عمرها في حظيرة واحدة ، لا تنمو نموًا مكتملاً كالكلاب الحرة التي نستطيع أن نغصى في إثر والديها . والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أدكياء لأن الطفل يشكل نشاطه لفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقًا للقوالب الموحدة في محيطه . إذ أنه

لا يتعلم إلا قليلاً من الأطفال الدين في مثل سنه وحيثما يكون محرد وحدة في المدرسة ، فإنه يظل غير مكتمل . ولكي يبلغ الفرد قوته الكاملة ، فإنه يحتاج إلى عرلة نسبية ، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة » (ص ٣١٨-٣١٩)

« إن إهمال مؤسسات الاجتماعية لفرادية مسئول أيضاً عن صمود الراشدين لأن الإنسان لا يتحمل - دون أصرار - طريقة الحياة ، وتشابه العمل اسخيف المفروض على موظفي وعمال المكاتب والمصانع ، وعلى جميع من يساهمون في الإنتاج الصخيم » . (ص ٣١٩)

* * *

ويختتم الرجل هذه التقارير التي اقتطفنا السير بها ، والتي تتناثر ، في كدبه كله ، وتتجمع عند إحساس واحد . هو الإحساس بحظر هذه الحضارة على « الإنسان » ومقوماته الذاتية ، وخصائصه الإنسانية . . . يحتملها هذا التقرير الذي يحمل طابع الإنذار . والذي - مع أنه يصدر عن « عالم » - يشه صرحات الإدارات الدينية للعصاة :

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يعرضها المجتمع المعصرى . . . ولقد وصمنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره ، وعرفت لأنه لا يستطيع بكيف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقها « التكنولوجيا » وأن هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وأن العدم والتكنولوجيا ليسا مسئولين عن حالته اراهية ، وإنما نحن المسئولين لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع . . . لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً . إن مبادئ « الدين العلمى » والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو « الحقيقة البيولوجية » . فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حيثما تُسأَل في ارتباد الأرض المحرمة . هي إضعاف

السائل . . ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار ، لأن علوم الجهاد قدتنا إلى أرض ليست لنا فقبلنا هداياها جميعًا بلا تمييز ولا تبصر . . ولقد أصبح الفرد ضعيفًا ، متخصصًا ، فاجرًا ، غييًا ، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسسته » (ص ٣٢٢)

ثم يعقب هذا الإندار بصيحة أخرى فيها يسغى عمه في فصل طويل في كتابه بعنوان : « إعادة إنشاء الإنسان » وفيه يقول -

« يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان - في تمام شخصيته - الإنسان الذي أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة . كذلك يجب أن يحدد الجنسان مرة أخرى . فيجب أن يكون كل فرد إما « ذكرًا » وإما « أنثى » ، فلا يظهر مطلقًا صفات الجنس الآخر العقلية وميوله الجنسية وطموحه . وبدلاً من أن يشبه الآلة التي تسج في مجموعات يجب على الإنسان - بعكس ذلك - أن يؤكد وحدانيته . ولكي يعيد تكوين الشخصية يجب أن يحصم هيكل المدرسة ، والمصنع والمكتب ، وأن نند مبادئ الحضارة لتكنولوجيا نفسها » . . (ص ٣٦٨)

ومن قبل يقول في تقديمه لكتبه إنه « كذلك كتب لأولئك الذين يجدون في أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا - ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية - بل أيضًا ضرورة قلب الحضارة الصناعية ، وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري » . . . (ص ١٢) .

* * *

هذه المقتطفات توسع فيها - كما توسعنا في المقتطفات التي نقلتها عن دكتور كاريل في فصل « الإنسان ذلك المجهول » - عن عمد بوصفها شهادة من رجل أول صعدته أنه « عالم » دارس لموضوعه ، متمكن منه ثم هو من الناشئين في كتب هذه الحضارة التي يثور عليها هذه الثورة ، ومن المؤمنين

بالعلم ، الذى يعلن عن عجزه وقصوره هذا الإعلان وهذه المقتطعات - وحدها - تكفى للدلالة العميقة على أن هذه الحضارة «حضارة لا تلائم الإنسان» . لأنها قامت دون معرفة بطبيعته ، وسارت فى طريقها دون اعتبار لخصائصه ، ودون اعتبار كذلك لما تتركه له من ويلات وفى الطريق أهدرت خصائصه كجنس ، وأهدرت خصائصه كفرد ، وأهدرت خصائص الذكورة والأنوثة فى سبيل توفير إنتاج صحى ، تعود أرباحه إلى عدد محدود من الجشعين ، وفى أحسن الحالات فى سبيل تيسير مادية ورفاهية مشكوك - على الأقل - فيما إذا كانت ذات فائدة حقيقية للإنسان ، ومقطوع بدون شك بأنها لا تساوى ما أهدرت فى سبيلها من «إنسانية الإنسان» وخصائصه كجنس ، ومن إهدار خصائص الفردية الواضحة فيه ، ومن إهدار خصائص المرأة والرجل والأسرة والطفل . وكل مقومات الحياة وليست هذه كل ما حدث على هذه الحضارة ، ولا على الحياة التى تقوم عليها وكذلك ليست هذه زاوية نظرت إليها تمامًا . فهناك اختلافات فى تشخيص «الداء» أو فى «تكييف الموقف» بيننا وبين الرجل - كما سمين فى الفصل قبل الأخير من هذا الكتاب - كما أن الاختلافات بيننا وبينه تكثر وتتسع عند «وصف الدواء» وطريقة العلاج فالرجل محكوم فى تفكيره كله - على الرغم من سعة أفقه ورحابة نفسه و، خلاصه العلمى - بتريخ بيئته الحضارية ، وبرواسب ووراثات فكرية وشعورية وتاريخية ، لا يملك الخلاص منها مهما بدا له أنه تحرر من كل هذه الصعوط .

ونذكر على سبيل المثال حديثه عن كبت هذه الحضارة للششاط الدينى للأفراد الذين يعيشون فى ظلها ، وأثر هذا الكبت فى خلق أشخاص فى مرتبة الدنيا .

إن صورة معينة من صور « النشاط الدينى » هى التى تخايل له فى كل حديثه المتفرق فى الكتاب عن هذا الجناح . صورة مزولة العقيدة مراولة روحية بحتة . كما يزاول المرد نشاطه الفنى والجمالى والأدبى . وهو يلحق النشاط الدينى بهذه الألوان من النشاط ، بوصفه واحدًا منها

هذه الصورة مستمدة من التصورات الدينية كما هى سائدة فى أوروبا ، باعتبار الدين نشاطًا روحياً فردياً يتمثل فى الصلاة والدعاء والمجاهة ، والتصوف إلى آخر صور النشاط الفردى (الروحى) للعقيدة . .

وهو يعيب على الحضارة الصناعية كتبها لهذا النشاط فى هذه الصورة . وعلى الرغم من شفافته شعوره بهذا الجانب ، ورفرفة روحه وهو يتحدث عنه ، وتجاربه الذاتية فى هذا الحقل .

على الرغم من هذا كله فهو لا يتمثل الدين - كما تتمثله نحن - بمنهج حياة كامل . هذا النشاط الذى يصفه جانب واحد من جوابه . . وهو منهج يسيطر على هذا النشاط « الروحى » كما يسيطر على النشاط الفنى والجمالى والأدبى . . كما يسيطر أيضًا على النظام الاجتماعى والاقتصادى ، والحصارى كله . فمنه تنبع وإليه ترجع ، كل هذه الألوان من النشاط ، فى كل جانب من جواب الحياة .

وجاية لحضارة الراهنة ، وسبب فسادها الأساسى ، وإهدارها للقيم الإنسانية والخصائص الإنسانية ، والمفومات الفردية . وكل ما يدمعها به دكتور كاريل بحق ، يكمن فى رفضها ابتداءً أن يكون للدين - بوصفه منهجًا للحياة من عند الله - هذه الاختصاصات وهذا السلطان أى رفضها لألوهية الله سبحانه . هذا الرفض المتمثل فى اتخاذ مناهج للحياة غير منهجه ، ولو لم تعين رفضها لألوهية الله جهراً - كالبلاد الشيوعية - فاتخاذ مناهج من صنع البشر هو رفض لألوهية الله قطعاً .

وهذا الرفض سابق على قيام هذه الحصار . وله أسبابه الخاصة في التاريخ الأوروبي من ناحية ، وفي تاريخ النصرانية في أوروبا من ناحية أخرى . وله ما يصبره كذلك ^(١) . وبسبب هذا الرفض القديم - منذ أيام النهضة - وارتداد أوروبا إلى الوثنية الرومانية . قامت الحضارة الحديثة على قاعدة لا دينية . ومن هذه الثمرة جدتها كل الآفات ، وحياتها الحقيقية على « الإنسان » تسع كلها من هذا المصدر الخبيث . ويهدارها لتفيم الإنسانية ، والخصائص النوعية والفردية ، مرده كله إلى هذا المنبت النكد .

وفي هذا « التشخيص » يختلف كل الاختلاف مع دكتور كاريل . نختلف في أسا بدأ من الجذور العميقة ، بينما يبدأ هو من أحد الفروع وهو « تحريف علوم الإنسان عن علوم المادة » وفي أسا ندرك حدود النشاط الديني التي تكبتها هذه الحصار في مداها الواسع الشامل لكل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

ومن ثم يختلف في وصف العلاج . . عن ذات المستوى ولكن هذا ليس مكانه هذا الفصل فسعالحه في الفصل قبل الأخير عند اقتراح « طريق الخلاص »

وحسبها أن تشير إلى أصل الفساد في نبات شجرة الحصار لراثة ، إلى جانب الطواهر المتنوعة التي عرضها دكتور كاريل في إدراك سليم ، وإخلاص أكيد في كتابه القيم . بوصفه أحد العلماء الكبار ، الذين يعتمدون على « العلم » وحده في الملاحظة والتشخيص والعلاج .

(١) يراجع فصل « العصم النكد » في كتاب « المستقل لهذا الدين »

عقوبة الفطرة

لم يكن بد ، وقد شرد الإنسان عن ربه ومهجه وهذه . . . وعند الإنسان نفسه واتخذ إلهه هواه . وجهل الإنسان نفسه كذلك وراح يخبط في التيه بلا دليل وأقام منهج حياته على قواعد من هد الخهل ومن ذلك الهوى واعتدى على فطرته التى فطره الله عليها فى حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه .

لم يكن بد وقد رفض الإنسان تكريم ربه به ، فاعتز نفسه حيواناً - وقد أراد الله إنساناً - وجعل نفسه آلة - وقد أراد الله مهندساً للآلة . بل جعل الألة إلهها يحكم فيه بما يريد . وجعل المادة إلهها يحكم فيه بما يريد . وجعل الاقتصاد إلهها يحكم فيه بما يريد - وقد أراد له ربه أن يكون سيد المادة ، وسيد الاقتصاد . ولكنه رفض هذا التكريم كله لينجو فقط من الكنيسة ، ويشرد من إله الكنيسة !

لم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيواناً لطيفاً - كما أن الرجل حيوان حش - عاية الالتقاء بينهما اللده ، وغاية الاتصال بينهما المتاع . وسى أن الله يرفع هذه العلاقة ويظهرها ويركيها ، ويوطئها ، امتداد الحياة من جهة ، وترقية الحياة من جهة أخرى ، ويربطها بحمة التمدن الإنسانى ، ويجعل من الأسرة محصر المستقل ، ويجعل من المرأة حارسة الإنتاج الميس . . . نتاج المادة الإنسانية . . . ويصونها من التذلل كى لا تكون مجرد أداة لذة . ويصونها من الاشتغال بإنتاج المراد فى المصنع ، وهى فى الأسرة تنتج وتحرس مادة «الإنسان» .

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه « الإنسانية » ليحصر طاقته في الإنتاج المادى ، وأقدم حياته كلها على أساس مادى ، وتصور مادى ، وكنت الحوائج الحية المرفقة اللطيفة في حسه ، والتي وهبها الله له لأنه « الإنسان » الخليفة الفذة في هذا الكون ، التي تشمل المتناقضات كلها في تناسق بديع

لم يكن بد وقد أقدم الإنسان نظامه على الرب ، ليكد انقطاع الشرى كنه في خدمه بصعه آلاف من مؤسسى البيوت الدالية وسوك المرائى ، تعود إليهم حصيلة كد البشرية في أنصى لأرض ، وهم قاعون وراء المكاتب الضخمة ، والنظريات الاقتصادية ، وجميع أجهزة التوجيه والإعلام !

وفي النهاية . لم يكن بد وقد اتخذ الإنسان له آلهة من دون الله ، فاتخذ من المال إلهاً ، ومن اموى إلهاً ، ومن المادة إلهاً ، ومن الإنتاج إلهاً ، ومن الأرض إلهاً ، ومن الجنس إلهاً ، ومن المشرعين له آلهة يعنصبون احصااص الله في التشريع لعباده ، فيغتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله . . كل هذه الآلهة اتخذها وعندها ، ليهرب من الله ويستكف عن عبادته !!!

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كنه بنفسه أن تحمل به عقوبة الفطرة يؤدي صربية المخالفة عن ندائها العميق وأن يؤديها فادحة فاصمة مدمرة وقد كان .

كان . وأداها من نفسه وأعضائه ومن بدنه وعاقبته . ومن سعادته وطمأينته ومن مواهبه وخصائصه . ومن دنياه وأحمرته .

أداها - وفي الأمم التي بلغت ذروة الحضارة المادية بالذات - تناقضاً في السبل يهدد بالانقراض . وتناقضاً في الخصائص الإنسانية يوحى بالكسة إلى البربرية . وتناقضاً في الدكاء والمستوى العقلى مدد بانهير العلم الذى قامت عليه الحضارة ، وبانحيار الحضارة ذاتها في النهاية .

وظهرت آثار الكس للطاقات الأخرى الى لا تحاح إليها الصبغة

بطرائقها الحاضرة ، وأثار القلق على المستقبل في المجتمع المادى المتناحر ، وآثار
الخواء الروحى الذى تفرضه الفلسفات والأوضاع فى المدينة الكافرة . . . ظهرت
آثارها فى صورة لأمراض العصبية والعقلية والنفسية والعته والحنون والشذوذ
والانحراف والجريمة .

وظهرت آثار التوجيه المتواصل إلى حيوانية الإنسان وماديته وسلبيته ،
وإطلاق شهواته وغرائزه من كل صابط . . . ظهرت فى صورة الانحلال ،
واللامبالاة ، والسلبية ، وقبول الديكتاتوريات ، وحياة القطيع ، التى لا
هدف لها إلا السفاد ولصاح ويطعم والشر .

وكتب على الشريعة كلها أن تؤدى الضريبة فادحة صارمة ثقيلة : حرونا
رعبية ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعنوهين ومعذبين . وأزمات
تدو أزمات . . . وأزمات إذا قل الإنتاج وأزمات إذا زاد الإنتاج . أزمات إذا مال
الميزان التجارى إلى العجز وأزمات إذا مال الميزان لتجارى إلى الزيادة . أزمات
إذا نقصت المحصولات وأزمات إذا فاضت المحصولات . أزمات إذا قل النسل
وأزمات إذا زاد النسل . . . وتحط من هنا وتحبط من هناك . وقلق وحيرة
واضطراب وعدم استقرار . وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بيتهم ،
فيحرون أمواتا بالسكته وتمحر المخ ، أو يحرون أشلاء أو محالين ، كما لو كانت
قد سلطت عليهم قوى المردة الأسطورية من حيث لا يحتسبون . . . وما سلطت
عليهم سوى أنفسهم . وما كان إلا مذيير الله الذى لم تفتح له القلوب والأذان .
«ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب» . . .

(البقرة : ٢١١)

«ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل» . . . (البقرة : ١٧٨)
«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فاستح منها ، فأنتعه الشيطان فكان من
الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخذ إلى الأرض وانع هواه فمثله كمثل

الكلب ، إن تحمل عليه يهث أو تتركه يلهث » . .

(الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦)

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا - وأحل الله البيع وحرم الربا - فممن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره إلى الله ، ومن عاد فأوفى أصحاب النار هم فيها خالدون - يمحى الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » .
(البقرة : ٢٧٥ - ٢٧٦)

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وادروا ما بقى من الرب - إن كنتم مؤمنين - فإن لم تفعلوا فآذوا بحرب من الله ورسوله » . . (البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩)
« والعصر إن الإنسان لئى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » . . (سورة العصر)

* * *

ولآن نأخذ في عرض أقوال الشهود عن برور آثار لحضارة المادية وتضعفها في الأمم التى وصلت إلى قمة الحضارة . فنستوفى هذا عناصر المأساة الأربعة - كما أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث .

وقد أحدا شهودنا من درجات متفاوتة ومن بيئات مختلفة . منهم العالم المحقق ، المؤمن بالعلم ، المعتمد عليه في مواجهة المأساة ولا سواه ومنهم الفيلسوف الذى لا يؤمن بالدين ، ومع ذلك يرى على ضوء العفر الخطر الذى تتردى فيه البشرية . . ومنهم الباحث المؤمن بالدين وبالعفر وبالعلم وبعبارة الإنسان ، اعرف في الوقت نفسه بمكان كل من هؤلاء في مجال اعرفة ومجال العلاج . . ومنهم الطيبة التى تقدر حدة الموضوع ، فتعالجه بالحد الذى يستحقه ومنهم الصحفى الذى لا يعيه من المسألة إلا العرض الصحفى والتشويق والإغراء .

وقد اكتفيت بهذه اشهادات من عشرات مثلها ، لأنه لا سبيل لإثبات كل
الشهادات ، واستدعاء كل الشهود ، في فصل من كتاب !

* * *

يبدأ الدكتور الكسيس كاريل شهادته بالكلام عن محالمة الشر بل يسميه
«القوانين الطبيعية» - وسميه بحر «قوانين لفطرة التي فطر الله الناس عليها»
- والعواقب التي لا بد أن يبقها من يخالف هذه القوانين الصلبة التي لا تلير ،
ولا تترك محالفيها بلا عقوبة ، ثم يأخذ في بيان ما حل بالشرية فعلاً من هذه
لعقوبة .

« قبل أن أبدأ هذا الكتاب ، كنت أدرك تمامًا صعوبة هذا العمل بل
استحالته تقريبًا . ولكسى شرعت فيه ، لأسى كنت أعلم أن شخصًا ما لابد
سيؤديه لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في محراها الخلق
لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط لقد فتنهم جمال علوم الجهاد لهم لم
يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية - وهي قوانين أكثر
عمومًا وإن كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين الدنيوية - كذلك فهم لم
يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم
ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات لضرورية للعلم الدنيوي ، ولأثرهم أساء
آدم ، ولذتهم الداحلة ، وتلك التي تنصل بأنسجتهم وعقولهم ، فإن الإنسان
يعلم كل شيء في الدنيا ، فإذا انحط وتدهور ، فإن جمال الحضارة ، بل حتى
عظمة الدني المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى هذه الأسباب كتبت هذا
الكتاب » . (ص ١٠ - ١١) .

« لإنسان تهيئة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير ، التي يفرضها عليه
المجتمع العصري . وقد وصفا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره
وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة لبيئة التي خلقتها التكنولوجيا ،

وأن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وأن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته لراثة ، وإنما نحن وحدنا المسئولون . لأننا لم نستطع التمييز بين المموج والمشروع . لقد نقصنا قوانين الطبيعة ، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً . . . إن مبادئ « الدين العلمى » والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة « البيولوجية » .
 فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتداد الأرض المحرمة . . . هي إضعاف السائر . ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار . لأن علوم الجهاد قادتنا إلى أرض ليست لنا . فقبحنا هداياها بلا تمييز ولا تبصر . وقد أصبح الفرد ضيقاً ، متحصصاً ، فاحراً ، عبثاً ، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤمساته^(١) . . . (ص ٣٢٢) .

« إن الصفة الغالبة على المرد في الحضارة العصرية هي الإفراط في النشاط الذى يوجه كله نحو الجانب العملى من الحياة . كذا يتصف المرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء . وأيضاً بنوع من الضعف العقلى ، الذى يتركه تحت تأثير البيئة التى يتفق وجوده فيها . ويدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق » . . . (ص ٣٦) .

« يبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن انجذاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة . وفى كل بلد يوجد تناقص فى المستوى العقلى والأدبى لأولئك المسئولين عن الشؤون العامة » (ص ٣٧)

« إننا قلنا نشاهد أفراداً يتبعون مثلاً أخلاقاً أعلى فى تصرفاتهم فى المدنية العصرية » . . . (ص ١٦٠)

« إن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائى بالجمال فى عملهم

(١) سبق أن اقتطعنا هذا النص فى الفصل السابق وأثبتناه هنا لضرورة دلالاته .

أكثر سعادة من أولئك الذين يتجون لأجل مجرد لإنتاج يمكنهم من الاستهلاك. إن الصناعة - بشكلها الحالي - حرمت العمل من الابتداع والجمال... (ص ١٦٢)

« إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفي واحتمال أو الدينى يخلق أشخاصاً في المرتبة الدنيا دوى عقول ضعيفة غير سليمة وبالرغم من أن التعليم العقلى يهباً الآن لكل فرد ، إلا أنت ما زلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص فى كل مكان... (ص ١٦٨)

« فأكثر الناس تمدينًا يظهرون شكلاً بدائياً فقط من اشعور . إهم قادرون على العمل السهل ، الذى يؤمن حياة الفرد فى المجتمع العصرى . إهم يتبحون وستهكون ويرصون شهواتهم النفسولوجية وهم أيضاً يسرون بمشاهدة الماريات الرياضية ، والأفلام السينمائية الصيائية الخشنة . كما يسرون حينما يسقلون سرعة من مكان إلى آخر بدون بدل أى جهد ، وحينما يتطلعون إلى الأشياء السريعة الحركة إهم باعمون ، عاطفيون ، شهوانيون ، قساة ، مجردون من الإحساس الأدبى والدينى والشعور بالجمال .

(ص ١٦٩)

« إن عدم التناسق فى دنيا الشعور ظاهرة مميزة لعصرنا » (ص ١٧٠)

« فى استطاعة التفكير أن يولد أمراضاً عضوية بصفة عامة ومن ثم فإن عدم استقرار الحياة العصرية ، والانفعال الدائم ، وانعدام الأمن ، تخلق حالات من الشعور تجلب الاضطرابات العصبية والعضوية للمعدة والأمعاء . كذا نقص التغذية ، وتسرب الحراثيم لمعوية إلى الدورة الدموية . . . والتهب الكلى وما يصحبه من أمراض الكلى والمثانة إن هى إلا النتائج اسعدة لعدم التوازن العقلى والأدبى . ومثل هذه الأمراض تكاد تكون غير معروفة فى المجتمعات التى تحيا حياة بسيطة ، وليست على القدر الذى ذكرناه من

الانصاع، كما أن القلق فيها غير دائم . وبالمثل فإن الأشخاص الذين يحافظون على سلام دتهم الباطنية ، وسط صوصاء المدينة الحديثة محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعصوية » . (ص ١٧٧)

« يجب أن يظل النشاط الفسيولوجي خارج حقل الشعور إذ أنه لا يلبث أن يصاب بالاضطراب حينما نوليه اهتماما . ولذلك فإن « التحليل النفسى » حينما يوجه عقل المريض نحو نفسه ، قد يريد من حالة عدم التوازن ومن ثم فإنه من الأفضل أن يهرب الإنسان من نفسه ببذل جهد لا يشتت عقله ، بدلاً من الاستغرق في تحليل نفسه . إذ أننا حينما نوجه نشاطنا نحو عية محددة ، نجعل وظائف العقلية والعضوية كملة التدفق . لأن توحيد الرغبات وتوجيه العقل نحو غانة واحدة ينتج ضرباً من لسلام الداخلى . ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلاً يشتتها بالعمل ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بأمل حال المحيط أو الجبال والسحب ، وروائع ما أنتجه الصاوير والشعراء ، وابتدأى السامية لى تمحصت عنها عقول الفلاسفة ، والعمليات الحسابية التى تعبر عن القوايين الطبيعية . وإنما يجب عليه أيضاً أن يكون الروح التى تكافح لبلوغ مثل أدبى عال ، وتبحث عن النور فى ظلمات هذا العالم ، وتسير قدماً فى طريق الدين ، وتنشد نفسها لكى تفهم الأساس غير المنظور هذا العالم . إن توحيد نشاط الشعور يؤدي إلى تدفق أعظم بين الوظائف العصبية والعقلية .

ولهذا ندر أن توحد الأمراض العصبية وأمراض التعذية ، والإحرام ، واجنون ، بين الجماعات التى نيا فيها الشعور الأدبى والعقل فى وقت واحد ، كما يكون الفرد أكثر سعادة فى مثل هذه الجماعات » (ص ١٧٧ - ١٧٨) .

« إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق سئة مناسبة لنشاط العقل ، وترجع القيمة العقلية والروحية المنحطة لأعلب بنى الإنسان - إلى حد كبير - إلى

المفائص المرحودة في جوهر السيكولوجى . إذ أن تفوق لماده ، ومبادئ دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق - كما عرفتھا الحصار المسيحية أم العلم الحديث (١) كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التي لها شخصيتها وتقاليدھا الخاصة ، تحطمت بفعل التغيرات التي طرأت على عاداتھا . وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشاراً واسع المدى ، كذا الأدب الرخيص ، والراديو ودور السينما . ومن ثم فإن إردباد الطبقة الغنية أخذ في الإردباد أكثر فأكثر ، بالرغم من كمال المباح لتي تدرس في المدارس والكلليات والجامعات . . . ومن العجيب أن بلادة الذهب توجد عالماً حيثما تتقدم المعرفة العلمية !

« إن أطفال وطلبة المدارس يكوّنون عقولهم من البرامج السحفة التي توّصع لوسائل التسلية العامة . ومن ثم فإن البيئة الاجتماعية تدهص نمو لعقل بكل قوتها بدلاً من أن تعمل على هذا النمو » . (ص ١٨٤)

« كم أن الشذوذ الجنسي أخذ في لانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانباً ، وأصبح المحللون النفسيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية . ولم يعد هناك فرق بين خطأ والصواب . والعدل والظلم . فالمدجرون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان ، وليس هناك من يبدى اعتراضاً على وجودهم . ولقد جعل المساواة الدين شيئاً بالتموين لكل فرد منه قسط

(١) هذ التقرير عن أب المسيحية أم لعلم الحديث يحالف الوقع التاريخى . فالمسيحية - كما عرستها الكنيسة - وقفت وقفة عبدة في وجه المذهب العلمى الحديثة التي جاءت إلى أوروبا من اعالم الإسلامى وكانت هذه لوقفة من لأساب الأصيلة للمصام انكد في أوروبا بين العلم والدين ، وبين الحياة أيضاً (يراجع في هذه القصية كتاب الإسلام على مفترق الطرق » تأليف محمد أسد ، وترجمة عمر مروح)

معين وحطمو الأسس العامصة ، ولكنهم لم يسجحوا في اجتذاب القوم
العصريين . ومن ثم فإنهم يعطون عبثاً أصحاب الأخلاق الضعيفة في
كنائسهم نصف الفارعة كل أسوع .

« إنهم قانعون بدور رجل البوليس الذي يؤدونه فهم يساعدون الأغنياء
ومصالحهم ، لكي يحفظوا إطار المجتمع الحالي ، أو يتملقون شهوات الجمهور
مثلما يفعل الساسة » (ص ١٨٦)

« ليس العقل قوياً كالجسم ومن لعجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً
من جميع الأمراض الأخرى محتمة . ولهذا فإن مستشفيات المجانين تعج
بنزلائها ، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم ويقول من . م .
بيرس : « إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب ادخاله أحد
مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر » . وفي الولايات المتحدة تبنى
المستشفيات عييتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال
المصدورين ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية ، ومماثلها
من المؤسسات ، حوالي مئة وثلاثين ألف حالة جديدة . فإذا استمر عدد
المجانين في السبر على هذا المعدل ، فإن حوالي مليون من الأطفال والشبان
الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكلية سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً
أو آخراً !

« هي عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية
٣٤٠ ٠٠٠ مجنون ، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجورين في
المصحات الخاصة ٨١ ٥٨٠ وكان عدد مطلقي السراح بشرط كلمة الشرف من
ضعاف العقول ١٠٩٣٠ ، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي
تعالج في المستشفيات الخاصة وعلاوة على المجانين يوجد في البلاد كلها
٥٠٠ ٠٠٠ شخص ضعاف العقول . ولقد كشف المخص الذي تولته اللجنة

الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠ ٠٠٠ طفل عي لأقل على مستوى محقق من الذكاء ، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار في المدارس العامة والإفادة مما يتفقون من علم . . . وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير . ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية ، مصابون باضطرابات نفسية ^(١) وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع المعاصر . فإن أمراض العقل خطر داهم ، إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى بل والتيفوس والطاعون والكوليرا فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف حتى التفوق الذي تتمتع به الأجناس البيضاء ^(٢) حالياً . . . على أنه يجب أن يكون مفهومًا أنه لا يوجد ضعف عقول ومجاين بين المجرمين بالكثرة التي يوجدون بها بين أفراد الشعب ! صحيح أن عددًا كبيرًا ممن يعانون من النقص العقلية موحود في السجون ، بيد أنه يجب ألا يعيب عن بالنا أن أكثر المحتجين واسعى الثقافة ، ما زالوا مطلقى السراح .

« ولا شك أن كثرة عدد مريض الأعصاب والتفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تعاني منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقًا إلى تحسين صحتنا العقلية » (ص ١٨٧ - ١٨٨)

(١) هدد كلها إحصاءات قديمة وقد تصاعقت أكثر من مرة في هذه الفترة
(٢) إن الذي يلقى بال الرجل هو فقط الخطر على الأجناس البيضاء وهذه إحدى عماليل العجلة العرسة في شقوة البشرية ولم يستطع الرجل لعام الراسع الأفق أن يتخلص منها!

«هناك أشكال معينة من الحياة العصرية تؤدي مباشرة إلى الانحلال كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس الأبيض» . . (ص ٢٦٤) .

« إن في استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عما إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موحودة في الرجال العصريين ! بل إن بعض المراقبين يرتدون في حقيقتها فـ « تيودور دريزر » يعثرها أسطورة خرافية ! والحقيقة أن سكان المدينة الحديثة يظهرون تشبهاً كبيراً في ضعفهم العقلي والأدبي . فمعظم الأفراد يتمنون إلى طرار واحد . إهم حليط من الأشخاص مصطربي الأعصاب ، يلبدي الشعور ، معرورين معدومي الثقة بأنفسهم ، أصحاب قوة عضلية ، وإن كانوا سريعي الشعب . يعانون حدة الدوافع الجنسية برغم ضعفهم وشذوذهم أحياناً » . . . (ص ٣١٦)



هذه فقرات مقتصة من شهادة دكتور كاريل خاصة « بالإنسان » عامة في الحضارة العصرية . . . وهناك جانب آخر أحسن أن نرده وحده وهو شهادته فيما يختص بقضية المرأة ، وعلاقات الحسنيين في هذه الحضارة ، وأخطارها على وجود الجنس الشرى ، وعلى مستواه العقلي والأدبي ونحب أن ندعه هو يبللى شهادته « العذمة » دون تعليق .

« عينا أن نستوثق من الكيفية التي ستؤثر بها طريقة الحياة في مستقبل الجنس لقد كانت استجابة النساء للنعديلات التي أدخلتها الحضارة الصناعية على عادات الأسلاف سريعة قاطعة . يدعص معدن المواليد فوراً . وقد تبين أثر ذلك بوضوح ، كما لمست نتائجه خطيرة في الطبقات الاجتماعية وفي الأمم التي سفت غيرها في الانتعاع بالتقدم الذي حققته - إم مباشرة أو بطريقة غير مباشرة - بتطبيق الاكتشافات العلمية - فالتعقيم لاختشارى لس جديدًا في تاريخ العالم فقد عرف في مرحلة معينة من مراحل المدنية

السابعة به طهارة علمية تعرف دلالتها^(١) . . . (ص ٣٧)

« إن الاختلافات الموحودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . . . إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، وأن يمتحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة . والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جسدها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . ووفق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي . فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فمحض مصطرون إلى قبوطها كما هي فعلى النساء أن يمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال فيجب عليهن ألا يتخدين عن وطائهن المحددة » . . . (١١٤) .

« إن الأب والأم يساهمان بقدر متساو في تكوين بواة البويضة ، التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد . ولكن الأم تهت علاوة على نصف المادة البويوية كل الروبو بلارم المحيط بالبواة . وهكذا تلعب دوراً أهم من الأب في تكوين الجنين » . . . (ص ١١٥) .

« إن دور الرجل في انتاسل قصير الأمد أما دور المرأة فيطول إلى تسعة

(١) عنه يشير إلى ما وقع من هب في أواخر أيام حضارة الإغريقه ، وأواخر أيام الحضارة الرومانية . وأدى في كلتا الحالتين إلى سقوطها واندهارها .

أشهر . وفي خلال هذه الفترة بعدى الجنين بمواد كيميائية تروشح من دم الأم من خلال أعشية الخلاص . وبينما تمد الأم جنينها بالعنصر التى تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفررها أعصاب الجنين . وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطيرة . فحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريباً من الأب مثلاً ينشأ من الأم . فإذ مخلوقاً من أصل غريب - جزئياً - قد اتحد له مأوى في جسم المرأة . فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل . وقد تتسبب المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها ، كما أن أحواشها الفسيولوجية والنسيكولوجية تعدل به دائماً . وعلى أى حال يبدو أن النساء - من بين الثدييات - هن فقط اللاتى يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين . كما أن النساء اللاتى لم يلدن لسن متربات توارثاً كاملاً كالولدت . فصلاً عن أمهن بصحن أكثر عصرية منهن . صفوة القول إن وجود الجنين ، الذى تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم ، بسبب صغرهما ، ولأب - حريئاً - من أنسجة روحها ، تحدث أثراً كبيراً في المرأة . إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية . مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتهل نمو المرأة . . ومن ثم فمن سخف الرأي أن نجعل المرأة تتكر للأمومة . ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلى والمادى ، ولا أن تبت في نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبت فيهم . يجب أن يذل المربون اهتماماً شديداً للحصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى . كذا لوظائفها الطبيعية . هناك اختلافات لا تنقص بين الجنسين . ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدين » (١١٦ - ١١٧) .

« أليس من العجيب أن برامج تعليم اببات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستقبضة للصغار والأطفال ، وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن نعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لا تشتمل على

الحمل فقط بل أيضاً على رعاية صغارها » . (٣٦٨ - ٣٦٩)
وأخيراً .

« من المعروف أن الإفراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو ، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية ، حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته . . ولقد أكد فرويد ، عن حق ، الأهمية القصوى للدوافع الجنسية في وجوه نشاط الشعور ومع ذلك فإن ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص ومن ثم يجب ألا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين ، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازاً عصبياً قوياً ، وسيطرة على أنفسهم . . وبسبب يصبح الضعفاء ، المعتلوا الأعصاب ، خرب المتزين ، أكثر شذوذاً عندما تكبت شهواتهم الجنسية ، فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة ، بممارسة هذا الشكل من الزهد ^(١) . » (١٧٤ ص)



ولسأحد شهادة « و ديورات » الكاتب الأمريكي المتعسف . وهو رحل لا يمكن أن يقال إنه من أعداء هذه الحصار . فهو شديد الإعجاب بالتقدم الذي تمثله هذه الحضرة في مجموعها . وهو يبدو معارفاً بالدين في حملته ، كما أنه طاهر العداء للإسلام بصفة خاصة وقد نشرت له مؤسسة فرنكيس ترجمة جرد من كتابه « مباحث الفلسفة » ونشرت له جامعة الدول العربية ترجمة أخرى من كتابه قصة الحصار . ويستطيع قارئ اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الإعجاب بهذه الحصار في حملتها ، كما يلاحظ موقفه من الدين حملة ، وعداءه الطاهر للإسلام خاصة .

(١) هذا ما يقول عالم متخصص أن جهلاء الصحفيين عديم ، وكتاب القصص الجنسي ، ومخيلات الإهراء الرخيص ، فتوحى كلها بشباب أن يصرعوا طفتهم الجنسية يحصلوا على الراحة والاستقرار !!!

ومع هذا كله فهو يؤدي هذه الشهادة عن هذه الحصاره في كسبه « مباحج
الفلسفة » :

« وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطيرة ، لأب أعنيء في الآلات فقراء في
الأعراض وقد ذهب اتران ، لعقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيها
الديني ، وانتزع العلم ما الأسس المتعالية لأخلاقيتنا ، ويبدو العالم كله
مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجرؤ حلق المصطرب إنا بواحه مرة
أخرى تلك المشكلة التي أفلقت نار سقراط ، معنى . كيف نهتدي إلى أخلاق
طبيعية تحل محل الزواجر العنوية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ إنا ندد
ترائنا الاجتماعي مهذا لفساد الماحر من جهة ، وبهذا الحنون الثوري من جهة
أخرى ، حين نفقد الفلسفة التي بدوها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد
الأغراض ، وترتب سلم الرغبات إنا مهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ويلقى
بأنفسا في هذا الانتحار الجماعي للحرب . وعندنا مائة ألف مياسي ، وليس
عندنا « رجل حكم » واحد إنا بطوف حول لأرض سرعة لم يسبق لها مثيل
ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ، ولم يفكر في ذلك ، أو هل نجد ههنا
السعادة الشافية لأنفسا المضطربة . بما هلك أنفسنا بمعرفتنا انشئ أسكرتنا
بخمرة القوة ولن ننحو منها غير لحكمة^(١) . (ص ٦ - ٧ ح ١)

(١) يلاحظ ههنا اعترافه بأن حراره الإيها الديني قد أوحدت « اتروا العقل » وأن ههنا
الاضطراب كله الذي يصعه إنا نشأ من تنحية الزواجر العلوية ومع هذا فهو يباحم
الدين حمله والإسلام بصفة خاصة في ثما كتابه^١ ويبدأ يريد أن يسدل الدين ؟
بالهففة أو كما يسميها حكمه^٢ والأرض لم تحل من الهففة في أي عصر ، ولكنها لم
تقم أبداً مقام الإيها انديسي في قيده . مجتمع على التورن ، وبلى السامي الخلفي
كذلك يلاحظ تشبيهه للمعرض للدين الذي شردوه عنه بالوثنية التي كدت من سقراط ،
ولتى انهارت فأشادت لعصر سقراط تلك المشكلة التي يتحدث عنها . فالسوية بين
الديانات المساوية والوثنية الإغريقية لا تعبر إلا عن الهوى .

وحزاع مواع الحمل وذيوها هو السبب المباشر في تعير أخلاقه . فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن الكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسئولاً عن ولده إلا بطريق لزواج . أما اليوم فقد انحلت ارباطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل ، وحلقت موقفاً لم يكن آناً يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الحديثة التي جاءت بها الاحراعات لتحقيق الرعات المتأصلة ! * . (ص ١٢٥ ح ١)

«فحياة المدنية تفصى إلى كن مشط عن اربواح ، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل مسيل يسهل أدائها . ولكن النمو الحسى يتم مكرراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادي . فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي الزراعى ، فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً وغير طبعى في حضارة صناعية أحلب الربواح حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ولا مفر من أن يأخذ لجسم في الثورة ، وأن تصعب القوة على ضغط النفس عما كان في الزمن القديم ، وتصبح لعفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ، ويحتفى الحياء الذي كان يضفى على الجمال حملاً ، ويهاخر لرجل بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحققها في معامرات غير محدودة على قدم المساواة من الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الربواح أمراً مألوفاً ، وتختفى البعيا من الشوارع بمافسة الهويات لا براقبة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعى ، ولم يعد لعام المدني يحكم به (١) . . . (ص ١٢٦ - ١٢٧) .

(١) لاحظ ميله - وهو أمريكى - إلى اعتبار قواعد اندس اندرسى في التفسير الاقتصادي للتاريخ وقد دفعه هروبه من الماين إلى هذا المأرق فهو لا يريد أن يعرف أن =

« ولما ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نحمل تأخير الزواج مسئولاً عنه . ولا في أن نعصر هذا الشر يرجع إلى ما فيها من رغبة في التعدد لم تهدب ، لأن الطبيعة لم تهيئاً للاقتصار على روضة واحدة . ويرجع نعصرها إلى ولاد المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة حسية جديدة على الملل الذي يحسونه في حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر انظر في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة لزوجية وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلى الخيرية والاجتماعية في هذه الصاعه المزدهرة ، وقد تتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان^(١) . وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المحجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحة ، وهى تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين ، وهم في حى الزواج ورعايته للصحة .

« ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كنه لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في انتظار ظاهر . ويحد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ، ومنطقاً بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كن طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها » .

ص (١١٧ - ص ١١٨) .

= شرودهم عن الدين هو الذى أدى بهم إلى هذه القوصى ، بما هو مجرد لانتقال من العهد الزراعى إلى العهد الصناعى ١١١

(١) هذا في الحقيقة هو السر . « في عدم خلقه الإنسان » في معزل عن الله وهدهد ، وهذا هو سبب البلاء .

« وأكبر الظن أن هذا لتجدد في الإقبال على البدة ، قد تعود أكثر مما
 نظر مع هجوم داروين على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف لسان
 والفيتات - وقد أكسبهم المال جرأة - أن لدين يشهر بملاذهم التمسوا في لعلم
 ألف سبب وسبب للنشهر بالدين . وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية
 ولزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صور الحسن مراداً للحياة .
 وقد كان علماء اللاهوت قديماً يجادلون في مسألة لمس يد الصلاة أليكون ذت ؟
 أما لأن فلنا أن ندهش ونقور : أليس من الإحرام أن يرى تلك اليد ولا نقبدها ؟
 لقد فقد الساس الإيما وأحدرا يتوجهون نحو الفرر من اخذر القديم إلى
 التجربة الطائشة . . . (ص ١٣٤) .

« وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في ظل هذا التغيير . ذلك أن
 تلك الحرب قوصت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في طل الصناعة
 والتجارة ، وعودت اجنود الوحشية والإباحية حتى إذا وصعت الحرب
 أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى . وأدت تلك
 الحرب إلى رحص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رهوس ، ومهدت إلى ظهور
 العصاات واخرثم القائمة على الاضطرابات النفسية ، وحطمت الإيما
 بالعاية الإلهية ، ونترعت من الصمير سد العقيدة الدينية (١) وبعد انتهاء
 معركة اخير والشر بها فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه
 في أحصان لاستهتار والفردية والاحلال الخلقى . وأصبحت ااحكومات في
 وادوالشعب في واد آخر ، واستأملت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت

(١) يعترف هنا سوء الأثر الذي أحدثته تحطيم الإيما بالعاية الإلهية وانزع سد العقيدة
 الدينية من الصمير . سى هو في كتابه كله لا يستهدف عرضاً أظهر من تحطيم الإيما
 بالعاية الإلهية وانزع سد العقيدة الدينية من الصمير ، والبرية على الإيما بالعيب
 وعل الرواخر العلوية !!!

الصناعات الريح ، بصرف بنظر عن الصالح العام ، وتجنب الرحان الزواج خشية مسئوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية حامله ، أو إلى طفليات فاسدة . ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات حديدة تحميه الاحتراعات من نتائج المغامرات السائية في المص^(١) وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة . . .

(ص ١٣٥ - ١٣٦)

« لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قل أمن لفرد في الوقت الذي نه فيه الأمن الاجتماعي . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمناً مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة ، مما يجعل الخطر جائئاً كل لحظة . أما الشباب اندى أصبح أكثر إقداماً وأشد غروراً من قبل ، فهو عاجز مادياً ، وجاهل اقتصادياً إلى حد لم يسبق له مثيل ويقل الحب فلا يجرؤ اشباب على الزواج وحيويه صغر من المال ثم يطرق الحب مرة أخرى ولب لقب أكثر ضعفاً (وقد مرت اسنوات) ومع ذلك لم تمتلئ الحبوب بما يكفي لزوج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الحبوب عامرة ، فيحتفل الزواج بموت الحب .

« حتى إذا ستمت فتاة اندنية الانتظار ، تدفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من العزل والتسلية وهدايا من الحوارب وحملات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمناهج

(١) يشير إلى وسائل مع الجنس والوقاية من الأمراض السرية لأمراد اللذان ووترتها الخضارة !

الجنسية وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها ، وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج متظرًا مترددًا ، إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإعناق عليهما معًا في مستواهما الخاص من المعيشة ؟

« وأخيرًا نجد ارفيق الذي يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا في كيسة لأنها من أحرار الفكر الدين أحدو، عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذي ظل حائماً على إيمانهم المهجور أثر في قسيتها . إنها يتزوجان في قبو مكتب الملبس (الذي نفوح منه غير الساسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف ، بل يعقد من المصلحة ، لها الحرية في أى وقت في التحلل منه فلا مراسيم مهينة ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمن ولا نشوة في الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحي من صفحة للذهن . ثم يقل أحدهم صاحبه صاحكًا ويتوجهان إلى البيت في صحب .

إنه ليس ستاً ! فلس نمة كوخ ينتظر الترحيب بها أنثى وسط الحشائش البصرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لها لزهور والخضروات التي يشعرون بأنها أبهى وأحلى لأنها من ررع أيديهما بل يجب أن يحميا أنفسهما خجلاً كأنهما في روضة سجن ، في حشرات صيقة لا يمكن أن نستبقيهما فيها طويلاً ، ولا يعبان تحسبها وتربسها بما يعر عن شخصيتيهما ليس هذا المسكر شيئاً روحياً كالبيب الذي كان يتخذ مطهراً ويكسب روحاً قبل ذلك عشرين عاماً (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شيء مادي فيه من الخفاف والمرودة ما تجده في مارساں فهو يقوم وسط الصوضاء والحجارة والحديد حيث لا يفد إليه ربيع ، لا ينت لها نصيف ازرع الضر بل سيلاً

من المطر ولا يربح مع ورود الخريف فوس فرح في السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر ، بل المتاعب والذكريات الحزينة

« وتصاب المرأة بحياة أمر . فهي لا تجد في هذا البيت شيئاً يجعل حدراته تحمل في الليل والنهار ، ولا تلت إلا قليلاً حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويحب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول في أنحاء هذا البيت ، يعرى شعوره بينائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ريكشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبيهاً عادياً تلك العلاقات غير لبريئة التي كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد في هذا البيت ، وليس فيه ما يمو ، ولا يعرق سكون الليل صوت الرضيع ، ولا يملأ مرج الأطفال النهار بهجة ، ولا أدرع بصة تستقبل البروج عند عودته من العمل وتحفف وطأته إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنتين طويلة في المدينة ؟ ولمطة فيما يطنان أفضل جوارب الحب . فيعترمان منع النسل . إلى أن يقع بينهما الطلاق !

« ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح - لأنه صفة جنسية لا رباط أوة - فإنه يفسد بمقداره الأساس الذي يقوم عليه ، ومقومات الحياة يموت هذا الرواح لانفصاله عن الحياة وعن النوع . ويكتمش الزوجان في نفسيهما وحيدتين كأنهما قطعتان ممصنتان وتنتهي العيرة الموجودة في حب إلى فردية يبعثها صعط حياة المساحر ويعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التويع ، حين تؤدي الألفة إلى الاستحفاف فليس عند المرأة جديد تبدله أكثر مما بذلته) . . . (ص ٢٢٣ - ٢٢٥) .

« ولقد غلبت من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكثر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فحن عارقون في نيار من التعبير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها . وأى شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والطم ، فالآن وقد أخذ البيت في مدنا الكبرى في الاحتفاء ، فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظهر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون السبل مقصوداً . وسيرداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من عرلة عقيمة تقصيه في أيام لا يعاقلها أحد . سيهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء عن التجربة قبل الزواج . سيمر الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا ازيجيات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سباحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح صبط الحمل سرّاً شائعاً في كل طبقة ، يصحى الحمل أمراً عارضاً في حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت . وهذا كل شيء ! » (١) . . (ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .



والآن نسمع شهادة الأستاذ أبي لأعلى المودودي في بعض جوانب هذه الحضارة ، وما أنشأته من آثار تنطوي على تهديد مدمر للحياة الإنسانية ذاتها فضلاً على الخصائص الإنسانية :

من كتاب « الحجاب » :

(١) يلاحظ أن هذا كله قد تم في أمريكا كما توقع الكاتب ، وأن هذا البلاء يرحف علينا رحماً نكدنا كثيراً .

« إن أساطين انفسه والأدب وأقطاب العلوم الطبيعية الذي رفعوا لواء الإصلاح في القرن الثامن عشر ، كانوا - كما سبق لنا الإشارة إليه - يحامون نظاماً للتمدن فيه أنواع من القيود والسدود ، وفيه صلاة من غير مرونة ، وعسر من غير يسر ، طافحاً بالتقاليد التي لا يفلها الطمع والضوابط الجامدة ، وانطرق المناقضة للمطردة والعقل وزاد طينه بلة انحطاط القوم المتوصل على طول القرون فجعله عقمة كأداء في كل طريق للرقى . فحارب كانت الههه العلمية والعملية الجديدة تبعث في نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى لتقدم والنبوغ بالعمل والاحتهد الدائى . ويجذب آخر كانت على رءوسهم طبقة الأمراء والرعماء لديسين نبالع في شذهم بالأعلاء انتقليدية . ومن الكنيسة إلى اجندبة والفضاء ، ومن قصور الإمارة إلى المزارع ودور التجارة . كل شمة من شعب الحياة ، وكل مؤسسة لتشطيات الاجتماعية ، كانت تجرى على نظام يبيع لبعض الطبقات لمخصوصة بحجة امتيازاتها القديمة وحقوقها لتوارثة ، أن تعسف وتجاوز على من لا يتمى إليها من العاملين الناهضين ، فتذهب شهر أعماهم ، وتستأثر نتاح مواهبهم وكفاءاتهم . فكل محاولة يقوم بها القائمون لإصلاح تلك الحال كنت تخيب وتفشل ، بإراء أثره الطبقات المسيطرة وجهلتها . .

« لهذه الأسباب كلها عذب الطبقات الذشدة للإصلاح ثور في نفوسهم مع الأيام ثائرة الانقلاب الحاكمة ، حتى علت عليهم وعمتهم ، آخر الأمر ، نرعات البغى والثورة على هذا اسطام الاحتماعى بجميع شعبه وأحزائه . وراج بين الناس نظرية متطرفة في الحرية الشخصية ، ترمى إلى إعطاء الفرد الحرية التامة ، والإباحية المصيقة بإزاء المجتمع . فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق في عمل ما شاء ، والحرية الكاملة في ترك ما يشاء ، وليس للمجتمع أن يتزع منه الحرية الشخصية . الح « (ص ٦٠ ٦١)

« ومن عرائب الاتعاق أنه قد واثت هذا الانقلاب الفكرى - وهو فى صدر شبابه - أسباب تمدنية أخرى . ففى هذا العصر قامت الثورة الصناعية الشهيرة ، وأعقبتها تغيرات هامة فى الحياة الاقتصادية ، كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عروى على تحويل وجهة سير الاجتماع الحديث إلى حيث تريد الآداب الانقلابية أن تحولها . وذلك أن تصور الحرية الشخصية ، الذى شأ عليه لنظم الرأسمالى ، حاءت الاحتراعات الميكانيكة ، وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعى (Mass Production) تحكمه وتقويه . فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية بى مدن عمرة ، أصبح ينجر إليها من القرى والأرياف أصعاف الملايين من لعموس . وعدت تكاليف الحياة عمالة فاحشة ، وارتفعت أسعار الحاجيات للحياة ، من المطعم والملبس والمنسكس ، إلى ما فوق طاقة العامة رد على ذلك أن اضيف إلى حاجات الحياة ما لا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة لأسباب راجع بعضها إلى ارتقاء التمدن وبعضها إلى مساعى أهل الثروة .

« وكفى النظام الرأسمالى لم يوزع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المتع واللذات ، وأدوات الرينة والزخرفة التى أدخلها فى لوازم الحياة بل هو لم يهينى للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم سهوله من حاجات الحياة الحقيقيه - وهى السكنى والطعام واللباس - فى تلك المدن التى قد زج بهم إليها .

« كان من نتائج ذلك كله أن أصبحت المرأة كلاً على زوجها ، وأصبح الولد عبئاً على أبه ، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه ، فضلاً عن أن يعول غيره من المتعيقين به . وقصت لأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع عاملاً مكتسباً . فاصطرت جميع طبقات النساء - من الأبيكار والأيامى والنبات - أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويداً

« ولما كثر بدلت احتلاط الصنفين ، واحتكك الذكور والإناث ، وأخذت تظهر عواقبه الطبيعية في المجتمع ، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية ، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق ، فهذا من قلق الآباء والبنات ، وللأخوة والأخوات ، والعولة والزوجات ، وجعلوا نفوسهم لمصطربة تطمش إلى أن الذي هو واقع أمام أعينهم ، لا بأس به ، فلا يوحسوا منه حيفة ، إذ هو ليس هبوطاً وتردياً ، بل هو هضة وارتقاء (Emancipation) وليس فساداً خفياً ، بل هو عين للذة والمتعة التي يجب أن يفتنيها المرء في حياته ، وأن هذه الهدوية التي يدفع بهم إليها الرأسمالي ، ليست مهاوية النار ، بل هي جنة تجري من تحتها الأنهار^(١) .

« وما وقف الأمر عند هذا الحد . بل جاء لنظام الرأسمالي الذي دفعت قواعده على هذا التصور للحرية الشخصية ، فمنح الفرد حقاً مطلقاً من كل قيد أو شرط في اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق . وتبعه فلسفة الأخلاق فأباحته له كل وسيلة يمكن أن تتحد جمع الأموال ، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل ولطرق مهلكة أفراد كثيرين . وبذلك تألف نظام التمدن من أوله إلى آخره ، على صورة تؤثر الفرد على الجماعة من كل وجهة ، وليس فيها ضمان للمحافظة على مصالح الجماعة بإزاء أثره الفرد . فامتدحت السبل على إخوان الطمع والأثرة ليعيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاءون . فعمد هؤلاء إلى الغرائز الإنسانية ينحسسون فيها مواطن لصعف والخلل ، وراحوا يتفنون في استغلاله لأغراضهم . فقام أحدهم ، وروج في

(١) كأنني هذا الرجل الفاضل العميق الفاذ يصف ما تقرم به صحافة وكتب قصة وأجهزة توجيهية كثيرة في بلادنا ، في دأب وإصرار . إن بروتوكولات صهيون تقول : إنها ستقوم بهذا التدمير في جمع الأمم ، لتسقط في يد ملك صهيون في النهاية !

الناس ميثة اللحم جلبًا لثروة إلى جيبه ، ولم يهض منهم من ينقذ المجتمع من عوائل هذا الطاعون . وقام آخر وابتل خلق الله بأفة الربا ، ونصب شبكته في القاصية والدانية ، وما هالك من يدفع عن دماء الناس ضر هذا العلق ، بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدوية الفتاكة ، كي لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه . وجاء ثالث وأشاع في المجتمع طرقًا متكرة للقمار، حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عصره ، وما ثمة من يتقدم لحصط الحياة الاقتصادية من هذه الحمى المحرقة .

« وما كان من الممكن في هذا العصر من الأدنية والبغي والعدوان الفردي ، أن يغرب عن إخوان الأثرة والضعف ، ذلك الضعف الإنساني الأكبر . . الشهوة الحامجة . التي يمكنهم باستئثارها جلب كثير من المنفع . فلم يفتنهم ذلك فعلاً ، بل استخدموا عريرة الشهوة لعارمة في الإنسان ما وسعهم وما أمكنهم . إذ أصبح مدار العمل والعندية كلمة في المراقص والمسارح ومراكز إخراج الأفلام ، على أن تستخدم لها العيد الحسن ، ويعرض على اسنصه في صورة أكمل من التبرج ، وفي هيئة أقرب إلى العرى ، ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إصرام نار الشهوة فيهم . جاء قوم فمهدوا الأسباب لإكراء النساء ، وتقدموا بحرفة الغناء إلى أن أصبحت تجارة دولية منظمة . . وجاء آخرون فتنفسوا في صبح أدوات الرينة والرحرفة ، ثم عمموها في المجمع ليريدوا من عريرة البرج التي جبلت عليها المرأة إلى أن يجعلوها فيهن هوسًا ، ويجمعوا بذلك الذهب والفضة ملء أكفهم . . وجاءت فئة أخرى فاخترعوا للملابس النساء أرياء كاشفة مغرية ، واستخدموا كل فاتنة اجمال لتلسها وتعشى بها اسودى ولحفلات ، حتى يقل عليها الشباب ويمتسوا بها ، فتغرم الفتيات تلك الأزياء لحديدة من الناس ، وتروح تجارة محترعيها . وتدرع آخرون بإشاعه لصور العارية والقصص العرامية ،

والمقالات الخليعة ، إلى استدرار الأموال ، وأحدو كذلك يملأون جيوبهم بإصانة العامة بالجدام الخلقى حتى انتهت الحال ، على مضي الأيام ، إلى أن لم تبقى ناحية من نواحي التجارة خالصة من عصر لإغراء . وها أنت ذا صرت لا ترى في زمانك هذا إعلاناً من الإعلانات التجارية في الجرائد والمجلات ، إلا وسمته الملازمة الباردة ، صورة امرأة عارية أو في حكم العارية ، كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلان ما رافقاً بالعرض بدون وجود المرأة^(١) ، ولا تجد كذلك فداق من الصادق ولا مقهى ، ولا صانة عرض إلا وقد استخدمت فيها المرأة لتعمل عمدها المغناطيسى للرجال^(٢)

« وكن المجتمع المسكين المخلول لا يملك - حيل ذلك كله - إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصاحبه وهى أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك العارات عن نفسه ، وينحط من استيلاء عريضة الشهوة عليه ولكن النظام الرأسمالى لم يكن من الصعب وأهواى بحيث يمكن رد حملته بسهولة . وإنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداة ، وعسكر شيطاني عرمرم ، من العنوم والآداب ، كما لا يزالان يعملان عملهما في نسخ النظريات الخلقية ومحوها من النفوس^(٣) .

« ومن براعة القاتل - والله - أن يحمل قتيده على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورصاه » (ص ٨٢ - ٨٧)

« هذه حالة المرأة عندهم وأما الرجال فما تريدونهم كل هذه

(١) أقرأ هذه ، وأقرأ صفحات « المرأة » في صحافتها كلها ، فأجد كأنها الرجل بصف ما عسداً ، لا ما هو واقع في ذلك العام الرأسمالى ! وأعود إلى « بروبو كولت صهيون » فأجد فيها النص على اتباع هذه الخطة وأعمم - إذن - من أين تستقى صحافتنا متاهجها ، وما هي الخطة التى نعدّها في مجتمعنا ؟ ولحساب من نعد هذه الخطة !

(٢) تراجع الهامشة السابقة !! (٣) تراجع الهامشة السابقة !!

المظاهر الخلاقية من اجتهال السوى إلا شوقاً وطموحاً وبهمة . لأن نار الشهوة ولعاطفة الهيمنة المتأحجة في الصدور ، لا تحمد بكل منظر جديد من الخلاعة والسفور، بل ترداد هيباً ، وتتطب منظرًا آخر أكثر منه سمورًا وحسورًا وتكشفًا . ومثلهم في ذلك كمثل من تصبسه لفحة من السموم ، فيكاد لا يسكن ظمؤه . كلما ارداد شربًا زداد عطشًا وظمًا . فهم دائما في إعداد أدوات ، وتهيئة أسباب وظروف لإطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم ، ولا يهدأ لهم دون ذلك بال ، ولا هم يستقر لهم قرار . وما هذه الصور العارية ، وهذا الأدب المشكوف وهذه انقصص لعرامية وهذه المراقص والبيادل ، والمسرحيات المشحونة بالانفعالات والنزعات العارمة . . ما هذه كلها إلا سبازح من جهودهم وجملهم لى يتعاطونها لإخماد الشهوات الخائجة . ولكن في الحقيقة لاستثرتها والنفع فيها التى أججها هذا المجتمع الماحر ، وتلك الحياة الاحتمعية الصالة ، في صدر كل فرد من أفرادهم . ولكهم سموها بالمر (Art) لإحفاء هذا لصعب لكاس في نفوسهم وفي حياتهم

« ولا يزال هذا الداء الويل - من علنة الشهوات البهيمية - يحر في كيان الأمم العربية ، وينقص من قوة حياتهم سرعة هائلة . والتاريخ شهد أنه ما سرى هذا الداء في مفاصل أمة ، إلا أوردها مورد التلف ولقاء . ذلك بأنه يقتل في الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لثقائه وتقدمه في هذه الحياة . وأتى للناس - لعمر الله - ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة ، لى لا بد لهم منها لمعالجة أعمار الإنشاء والتعمير ، ما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب ، وتكون عواطفهم عرصة أبدًا لكل من حديد من الإغراء والتهيج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة ، قوى التحريض ، ويكون الدم في عروقهم في عليل مستمر بتأثير ما حولهم من الأدب الخليع ، والصور العارية ، والأغاسى الماخنة ، والأفلام العرامية ، والرقص المثير،

والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوى العريان ، وفرص الاختلاط بالصف
المحالف . أستغفر الله - بل أنى لهم ولأحيائهم الناشئة - أن يجدوا في غمرة هذه
المهيجات الحو الهادئ المعتدل الذي لا مندوحة عنه لتثنية قواهم الفكرية
والعقلية ، وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يغتالهم عول الشهوات المهمة
ويستحرد عليهم وإذا هم وقعوا بين دراعى هذا الغول فأنى لهم النجاة منه
ومن غوائله وعواديهِ^(١) ؟ (ص ٣٧ - ٣٩) .

« كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التماسل هي فرنسا . فكانت نسبة
المواليد فيها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالي (عند نشوب الحرب
العالمية الأولى) ولم تكرر إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع
والثمانين ترمو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات . وأما المقاطعات السبع
والستون الباقية ، فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد . وكان
معدل الوفيات في بعض مقاطعاتها يزوح بين ١٣٠ و ١٧٠ بإزاء كل مائة
مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ، ودفعت لأمة الفرنسية إلى موقف
خرج بين الموت والحياة ، أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر
إلى شباب مقاتلين ، ورجال محاربين ، وأنه إن صحى - على لفرض - بذلك
العدد القليل من شباب الأمة وقتبها في سبيل الدفاع عن الوطن في تلك
الآونة ، فإنه لن تمكن السحاة من كرة العدو الثانية فكان من أسعاف هذا
الشعور في نفوس الفرنسيين أن تملكيت مشاعرهم فكرة الاستراة من النسل
حتى خيلتهم ، وحمل الكتاب وصحفيون والخطباء - وحتى أهل الحد من

(١) راجع شهادة الدكتور كاريل ساعمة في ضرورة الكتب فترة، صهياناً باسم العقل . على
عكس ما يهتف به دعاة الإباحية والتحلل للشباب المسكر، تميذاً لبروكولات
صهيون!

رجال الدين والسياسة - كلهم يهيئون بالناس ، من كل جانب ، وبصوت واحد . أن يكثروا من التوبيد والتسائل ، ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والرواج . وبادوا أن العدراء التي تترع برحمتها للتوليد خدمة لوطن ، تستحق العز والكرامة لا العنب والملامة ! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزاً قريباً لدعاة الحرية والإباحية ، فانتهروا الفرصة السانحة ، وبثوا جميع ما كان قد بقي في جعبة فكرهم الشيطاني من استغريات .. (٧٢-٧٣)

« إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم ، اضمحلال قواهم الجسدية ، وتدرجها إلى الصعف يوماً فيوماً . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ، وتعدت الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم ، وطعيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فمن أوائل القرن العشرين لا يرل حاكم الجيش الفرنسي محضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة لبحمد الفرنسي ، على فترة كل بضع سنين ، لأن عدد الشبان الواهبين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يران يقل ويبدد في الأمة على مسير الأيام . وهذا مقياس أمين يدل على كدالة مقياس حرارة في الصحة والتدقيق - على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية ^(١) ..

(ص ١١٣)

« والسكة الثانية العظيمة التي قد جررها على التمدن الفرنسي طعيان الشهوة المطلقة ، ورواج الإباحية وقبولها هي خراب لنظام العائلي ونصوص بنيانه ... » (ص ١١٤) .

(١) ومثل هذه الظاهرة أحدثت تنحلي في انشاب الأمريكي . فقد أعس رئيس الولايات المتحدة أب أكثر من مليون شاب أمريكي لم يصلحوا للخدمة العسكرية من بين ستة ملايين تقدموا للتوحيد وعرا ذلك إلى ضعف بنية الشعب الأمريكي بصفة عامة ، نتيجة لحياة الترف التي انعكس بها

« والأمة الفرنسية - كما أسلفت - لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين
 عامًا متوالية . فهي بعض السنين تريد نسبة الوفيات على نسبة المواليد وفي
 الأخرى تتساوون ، وفي الثالثة لا تزيد على نسبة الوفيات إلا بقليل جدًا
 وبجانب آخر لا يزال عدد الجالية المهاجرين في فرنسا ينمو ويكثر ، فكانوا
 قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الأصليين سنة
 ١٩٣١ . وإن استمرت الحال على ما هي عليه الآن ، فلا يستبعد أن تعود الأمة
 الفرنسية عند ختام القرن العشرين أقيّة في وطنها هي » . . (ص ١٣٢) .
 « ولا يحسب أحد أن الأمة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها في هذا
 الباب من الأمر أن جميع الأمم التي قد آمنت بما ذكر آنف من نظريات الأخلاق
 ومبادئ الاجتماع المتطرفة تمثلها وتجارها في تلك الحال » (ص ١٣٣) .
 « نشر في جريدة (Free Press) بدونرويت (Detroit) الأمريكية مقال
 جاء فيه :

« إن ما قد نشأ بيننا الآن من قلة الرواح وكثرة المطلاق وتفاكح العلاقات
 غير المشروعة - الدائمة ولعارضة - بين الرجال والنساء ، يدل كله على أننا
 رجعون القهقري إلى اسهمة . فالرغبة الطبيعية في النسل إلى التلاشي ،
 والجيل المولود حمله على غاربه ، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لارماً
 لقاء المدنية والحكم المستقل ، يكاد ينتهي من النفوس وبخلاف ذلك
 أصبح الناس يشأ فيهم الإفعال لآمال المدنية والحكومة وعدم النصيح هما » . .
 (ص ١٣٧) .

« كل هذا الاتباع لأهواء النفس ، وانفور من نغعات «روحية» ، والترم
 «الحياة العائلية» ، ولارتحاء في الروابط الروحية ، يكاد يذهب في المرأة عاطفة
 الأمومة العظيمة ، التي هي أشرف العواطف الروحية وأسماها في النساء ،
 والتي لا يقف عندها بقاء الحضارة والتمدن بحسب ، بل بقاء الإنسانية

جمعاء وما نجمت سينات مع الحمل وإسقاط الحيين ، وقتل الأولاد ، إلا
بنصوب هذه العاطفة في نفس المرأة فالمعلومات عن تدابير منع الحمل موفرة
لكل فتى وفتاة في ابولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من قيود الفنود
والآلات والعقاقير الممنوعة لمحمل معروضة للبيع في الحوانيت كالسلعة المباحة ،
تستصحها دائماً بنات المدرس ولكليات - بلغة عامة النساء - لكي لا تعوت
إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب ، إن سى حديها أن يأخذ أدراجه
معه . فيكتب القاصي « لندسى » (في محكمة دنفر)

« ٤٩٥ بنت في السن الماكرة من بدت المعاهد الثانوية اعترفت لي بأنهن كن
قد حرصن لعلاقة الجنسية مع الصبيان ، إلا أنه لم تحمل منهن إلا خمس
وعشرون . وأما الباقيات فسيم بعضهن من الحمل بمحض الاتفاق . ولكن
كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمل . وهذه الخبرة قد عمت فيهن
إلى حد لا يكاد لباس بصيود في تقديره » (١) . . . (ص ١٣٩) .

« وقد ذكرت في محله أمريكية هذه الأسباب التي لا تواب تؤدي إلى رواج
الفحشاء وقوطها هناك ، بالكلمات الآتية :

« عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بديان اليوم وهي جميعها في تسعير
سعر لأهل الأرض أولها الأدب لفاحش الخلع الذي لا يها يزداد في وقاحته

(١) كتب القاصي هذا الكلام في سنة ١٩٢٢ وهذه الحالة تعتبر رجعية ! فان تقدم لا
يتوقف ! ولعل هذا ما تريده بعض صحافتنا ، ونعتبره رسالة ها ولكنها ليست رسالة
لحساب هذا البلد وإنما لحساب صهيون ، وبيروت وكولات صهيون ! إن واحدة من
هذه الصحف تحدثت عن عدم كفاية الجيش التركي لأن طائفة « الدوبيا » الصهيونية قد
أشدت فيه الانحلال فأصبح الصابط التركي يصحح لكل شيء إلا للقتال بعد ما
صبعته الصهيونية وعلمته لتسكع في شرع أناتورك لمعارضة انتيات ! فما الذي تصعبه
هذه الصحف في شعوب ؟ وهل تصعب إلا ما صعبه الدوبيا في تركيا ؟ لذلك يحق لنا أن
نسأل الحساب من تعمل وتشر في شائنا التميع والفساد ؟

ورواجه يعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة . . . والثانى الأفلام السينمائية التى لا تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب ، بل تنقهم دروساً عملية فى بابه . والثالث اسحطاط المستوى الخفى فى عامة النساء الذى يظهر فى ملابسهن بل فى عريهن ، وفى إكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام . هذه المفاسد الثلاثة فىنا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام . ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر . فإن نحن لم نجد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومن ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردتهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والعناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ومشاكل ورقص وغناء » (ص ١٢٩) .

* * *

والآن نستمع إلى شهادة الطيبية التى تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبدالرحمن « بنت اشباطى » بعنوان « جنس ثالث فى طريقه إلى الظهور » من من مشاهدتها فى « فىنا » :

« . . . شئت الظروف أن أذهب فى عطلة الأحد ، لزيارة صديقة لى طيبية بإحدى ضواحي « فىنا » . بعد أسبوع مرهق قصيباء بين أوراق البردى العربيه فى دار الكتب . وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبى ، حين فتحت لى صديقتى باب بيتها معجبة ، وفى يدها « بطاطس » تقشره . ثم قادتنى فى لطف إلى مطبخها لتأخذ مجلساً هناك

« ولم يعب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتنى قائلة :

« ما كنت تتوقعين هذا المنظر . طيبية فى المطبخ ، يوم الأحد !

« قلت ضاحكة » :

« أما العمل يوم الأحد فربما فهمته . وأما اشتعالك بالصخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا ما لم أنتظره .

« فردت » :

« لو عكس لكنت أقرب إلى الصواب : فالعمل في عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين . وأما اشتعالى بالمطبخ ، فعلى لم أتجاوز به نطاق مهنتى . إدهو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معى سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

« ولما سألتها عن سر هذا القلق - مع استقرار الوضع الاجتماعى للمرأة الغربية - أجابت بأن ذلك القلق ، لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسولوجيا والبيولوجيا فى المرأة لعاملة ، وذلك لما لاحظوا من تغير بطىء فى كيانها ، لم يثر الانتباه أول الأمر ، لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص فى المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختيارى محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفيف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع ، تحت ضغط الحاجة والاستقرار فى العمل . ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار ، بل عن عقم استعصى علاجه . وبمحصن نماذج شتى متنوعة من حالات العقم اتضح أنه فى الغالب لا يرجع إلى عيب عضوى ظاهر . مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طرىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادى والذهنى والعصبى - عن قصد أو غير قصد - عن مشاغل الأمومة ، ودنيا حواء ، وتششها بمساواة الرجل ، ومشاركته فى ميدان عمله .

« واستند علماء الأحياء فى هذا الفرض - نظرياً - إلى قانون «بييمى معروف ،

وهو أن « الوظيفة تخلق العصور » ومعها فيها نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة للأنوثة ، لاند أن تضمّر تدريجياً بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة وإندماجها فيما يسميه « عالم الرجل » .

« ثم تابع العلماء هذا العرض ، فإذا السجارب تؤيده إلى أبعد مما كان متظراً ، وإذا بهم يعلنون - في اطمئنان مقرون بشئ - من التحفظ - عن قرب ظهور « جنس ثالث » نصمّر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

« وثارت اعتراضات . منها . أن كثرةعاملات يفرق من العقم ويشتهر الولد ومنها أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمل ، ويتيح لها بحكم القانون ، فرصة الجمع بين شغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنيها الخاصة لا يتعدى بضعة أحوال ، على حد يبلغ عمر خصائص الأمومة فيها ما لا يخصى من دهور وأحقاب

« وكان الرد على هذه الاعتراضات . أن شتاء لروجة العاملة للولد يخالطه دائماً الخوف من أعبائه ، والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في بحر العمل . ثم إن لاعتراف بالعاملة لأم قنما يتم إلا في حدود ضيقة ، وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفصل غير لأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج ، فيرد عليه بأن هذا الخروج - على قرب العهد به - قد صحبه تسه حاد إلى المساواة بالرجل ، وإصرار عبيد على التشبه به ، مما عجل سوادر التعبير ، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها في ضميرها .

« وما يزال المهتمون بهذا الموضوع ، يرصدون التغيرات الطارئة على كيان

الأنثى ، ويستقرتون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الإرضاع لضوب اللس ، وصمور الأعضاء لمخصصة لوظيفة الأمومة » . (جريدة الأهرام) .



من مقال إخباري في أحوال اليوم (من استوكهلم) موسى صرى .

« قال لي أستاذ جامعي سويدي :

« إننا نعلم أبناءنا وبناتنا في مدارس الثانوية ، وفي سن مسكرة ، كل شيء عن الجنس ، وضحًا صريحًا ليست لدينا مشكلة حس^(١) إن المتعة الجنسية كمثقة الطعام اللذيذ ، ومتعة الملابس الأنيقة ، والعلاقات الجنسية بين لرحال والنساء قبل الرواح هي شيء طبيعي عدى وما يباح للشباب يجب أن يباح بلقناة !

« وحلاصة القول إن « حرية الحب » في السويد تعنى أن نداء الجنس هو نداء طبيعي ، كنداء البطن ، ونداء العقل . ليس فيه ما يدعو إلى كسه ، أو شدة كتمان . ولقد تطور هم مجتمعهم إلى هذه النظرة المحددة إلى الجنس بين الرحل والمرأة . وقد فوجئت وأأ أتروص في حدائق « سكانسن » ذات صباح مشمس ، بوجود بركة ماء لاستحمام الصبية والنساء . ورأيت الأولاد والبنات يستحمون في الماء عرايا ، كما ولدتهم أمهاتهم ، وهم م بين سن الثامنة والحادية عشرة . وسددت الملاحظة تمامًا ، عندما عرفت أن انكار أيضًا من النساء والرجال ، يربلون إلى اسحر ويمرحون على الشاطئ ، وهم عرايا تمامًا . ليس هذا هو أسلوبهم في التصيف ، فهك من يرتدى لمايوه

(١) سرى معد قليل في المقال نفسه مدى صحة هذه الدعوى !

ولكن نزول « شلة » من جنسين إلى البحر - وهم عرايا - أمر لا يلفت النظر ،
ولا يدير أى رأس !

والسؤال : وماذا تفعل الفتاة إذا أصبحت أمًا غير زواح ؟

« والجواب : إذا تخلصت من جنينها كان بها . وإذا لم تتخلص فإن الدولة
كفيلة برعاية الطفل وحضانه وتعليمه بالمجان ، حتى سن السادسة عشرة .
وهو يقيد في سجل المواليد باسم أمه . أو باسم الأب - إذا اعترف به - والمجتمع
لا يعطى الآن غير الشرعى أو الأمهات غير المترجلات إلا كل تقدير واحترام !
« وهنا تساءل - في حد وخطورة :

« إذ كانت السويد تعتبر كدولة من أرقى دول العالم ، فهل نستطيع أن
نتصور ، أننا - وماقى الدول - سنجرى إلى هذا المصير ، إن عاجلاً
أو آجلاً (١) ؟

وتأكيد تقدم السويد - كأرقى دول العالم - أمر تؤيده الإحصاءات ،
ونعترف به كل الأبحاث العلمية .

« إن ما يخص الفرد الواحد في السويد من الدخل القومى يسوى ٥٢١
جنيهاً مصرياً في العام . أى حوالى ٤٣ جنيهاً في الشهر الواحد .

« ووصل نظام الحكم الاشتراكى في السويد إلى ما يقارب نحو الفروق تماماً
بين الطبقات ، بفرص الصرتب التصاعدية ، وإيجاد مختلف أنواع التأمينات
الصحية والاجتماعية ، التى لا تجد لها فى دول أخرى .

« كل مواطن سويدي يستحق معاشاً ، وإعانة مرضى ، ومعاش عدم
صلاحية ، وإعانة علاء معيشة وإعانة للسكن ، وإعانة للعمى

(١) نحن نجرى فعلاً ، وسرعة كبيرة ، إلى هذا المصير بفضل أجهزة التدبير المطلقة على
أحلاق شعوبنا ومقوماتها !

« كل مواطن يستحق نصيبه من التأمين الصحى ، وإعانات المرض التى تصرف نقداً ، وعلاج المجانى فى المستشفيات
« تدفع إعانة أمومة لكل النساء . تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة والرعاية الطبية فى المستشفى ، وإعانة إضافية لكل مولود
« التأمين ضد إصابات العمل إجبارى

« شروط الإعانات فى حالة البطالة هى أسخى شروط معروفة دولياً .
« تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة أقرب إلى الخيال . منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيهاً فى العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة . رعاية صحية مجانية . مصاريف انتقال مجانية للإجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة . مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم
« التعليم فى جميع مراحله بالمجان . مع تقديم إعانات ملابس ، وإعانات معيشية لغير القادرين ، وتقدم لطلبة قروض دراسية تصل إلى ٢٥٠ جنيهاً للطلبة المحتهدين .

« تقدم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصل إلى ٣٠٠ جنيه بفائدة بسيطة تسدد على خمس سنوات .

« إن ثلث لصرائب التى يدفعها الشعب السويدى تنفقها الدولة فى التأمينات الاجتماعية وتدفع لدولة ٨٠ ٪ منها فى مساعدات نقدية . إن أصحح ميرانية هى ميرانية وزارة الشؤون الاجتماعية التى وصلت هذا العام إلى ٣٣٤ مليون جنيه . ثم تليها ميرانية وزارة التربية وقد بلغت ١٢٣ مليون جنيه . بينما تنزل ميرانية القصر الملكى إلى حوالى ٤٠٠ ألف جنيه فقط .

« مع وجود كل هذه اشجعات على الاستقرار فى الحياة وتكوين أسرة ، فإن الخط البيانى لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض . مع وجود الدولة التى تكفل للفتاة إعانة زواج ، ثم تكفل لطفلها الحياة حتى الجامعة . فإن الأسرة

السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب الأطفال على الإطلاق . .
» يقابل هذا « :

» انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين
» وارتفاع مستمر في نسبة عدد لمواليد غير الشرعيين .

» مع ملاحظة أن ٢٠ / من المالمين الأولاد ولبنات لا يتزوجون أبدًا .

» لقد بدأ عهد انتصيع ، وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠ . كانت نسبة الأمهات غير المتزوجات في ذلك العام ٧ / وارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٢٠ إلى ١٦ / ولإحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة !

» إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله . إن طلاقًا واحدًا يحدث بين كل ست أو سبع زيجات . طبقًا للإحصاءات التي أعدها وزارة الشئون الاجتماعية بالسويد - والنسبة بدأت صغيرة ، وهي مسمرة في الزيادة . في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاق بين كل ١٠٠ ألف من السكان . ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ في عام ١٩٥٢ ثم ارتفع إلى ١١٤ في عام ١٩٥٤ .

» سبب ذلك أن ٣٠ / من الزوجات تنتم اضطرابًا تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحبس الفتاة ، والرواح بحكم « الضرورة » لا يدوم بطسعة الحال . ويشجع على الطلاق أن القانون في السويد لا يضع أية عقبة أمام الطلاق ، إذا قرر الزوجان أمهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جدًا . وإذا طلب أحدهما الطلاق فإن أي سبب بسيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق .

» وإذا كانت « حرية الحب » مكفولة في السويد . فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد . إنها « حرية عدم الإيمان بالله » ! لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق وهذه

الظاهرة تسود لرويح والدمرك أيضًا فالمدرسون في المدارس والمعاهد يدفعون عن هذه الحرية ، وبثوبها في عقول الشء والشباب . إن الكنائس موحودة في كل مكان ، ولكنها أقرب إلى التحف الأثرية والدولة تصرف على الكنائس ، وتدفع مرتبات القسوس ولكن الكنائس لا تفتح أبوابها إلا لصاح الأحد لبضع ساعات ، ولا يؤمها إلا عدد محدود جدًا من العجائز - أمثال جدتي وجدتك - والنكتة التي تسميها منهم : أنهم حددوا ساعات العمل للكنيسة بثلاث ساعات في الأسبوع وأنها من حقها بعد ذلك أن تأخذ إجازة . لم يعودوا يؤمنون بأن الدين هو وسيلة إلى إشباع حاجات النوع الإنساني !

« وهذه ظاهرة جديدة تهدد الخيل الحديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف ، وإلى الإدمان على المخدرات والخمور .

« وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن نحو ١٧٥ ألفاً . أي ما يوازي ١٠٪ من مجموع أطفال العائلات كلها . . وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف . . إن من قصص عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين ، من سن ١٥ ، ١٧ ، يوازي ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عامًا . وعادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سبي إلى أسوأ . ويتبع ذلك حقيقة رهبة « إن عشر الذين يصون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية ، تلازم أمراضهم الحسدية . ولا شك أن التهاذي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيفضاعف هذه الانحرافات النفسية ، ويريد من دواعي تفكك الأسرة ، ويفر بهم إلى هوة انقراض النسل . .

« قال لي صحفي نرويجي »

« إن مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى اهاويه بلا إيمان .

« قلت له :

« وماذا تفعل حكومتهم لدرء هذا الخطر ؟

« أجاب متألماً :

« إن حكومتنا أيضاً ليست مؤمنة » . . . (أبحار اليوم)

و بدون أى تعليق أو تعقيب ، يعلق هذا الفصل ، على هذه البذر الرهيبة
فهى باطقة بذاتها إن الذئب يخالمون قنون الفطرة ، لا يمكن أن يمضوا بلا
عقاب وهو عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات
الأرض ، ورحاء العيش ، ومصاعفة الدخل ، والصناعات المادية الخيالية .
فالحياة الإنسانية قوايتها لعطرية الصارمة التى لا تجامل ولا تسحلف ، ولا
تلين .

هذه القوانين هى التى يقول عنها الدكتور الكسيس كاريل :

« لأنهم لم يدركوا أن أجسامهم وشعورهم تتعرض لقوانين الطبيعية ، وهى
قوانين أكثر غموضاً - وإن كانت تتساوى فى الصلابة - مع القوانين
الديوية . كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون
أن يلاقوا جزاءهم » .

ولقد حذر الله - سبحانه - عباده عوقب العرض للحلاف عن هذه
القوانين . وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهذه ، المتمشى مع سنته فى
الكون ، فلا تكون لهم من عواقبها نجاة .

« فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . ففُطِح دابر لقوم الدين ظموا ،
والحمد لله رب العالمين » . (الأنعام ٤٤ - ٤٥)

«حتى إذا أخذت الأرض رحرفها واريست ، وطر أهلها أنهم قادرون
عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس .
كذلك نقصر الآيات لقوم يتفكرون »
(يونس ٢٤)
وصدق الله العظم . .

كيف انخلاص ؟

والآن ماذا يترى يكون حكمتنا على هذه الحصار الصناعية ؟
ما بعد هذه الشهادات لداله على بشاعه الجريمة ، وعلى الخطر الداهم
على الإنسانية ؟ على وجودها داته بالليل إلى الانقرص في الدول التي بلغت
قمة الحصار ؟ وعلى حصائصها لشمينة بالليل إلى الحنون والأمراض العصبية
والنفسية والشذوذ والإحرام ، وهبوط مستوى الدكاء ، وضعف العقل
والاحتقان الحسدى والعصبى والنفسى فى هذه الدول إلى آخر قائمة الالهام
الرهية ؟

ترى نصدر حكمت - لإعدام ؟ وهو الحكم الذى يبدو متكافئاً مع ظروف
الجريمة ؟

إن الدكتور « كريل » يقول : إنه كتب كتابه هذا « لإنسان ذلك
المجهول » . « لأولئك الذين يجدون فى أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا ليس
فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية و اجتماعية بل أيضاً ضرورة قلب
الحصارة الصناعيه وصهور فكرة أخرى للتقدم البشرى »

وسنعرف فيما بعد ما هى الفكرة الأخرى التى يقترحها .
أما نحن فنسند بالقول بأن حكم « الإعدام » لهذه الحصار ، ليس هو
أسبب الحلول التى تملكها البشرية .

إننا أولاً لا نملك إصدار حكم بالإعدام على الحصار الصناعية . فهي نتاج طبيعي ، له مكانة في تاريخ الحياة البشرية ، ولم يهبط عليها من عالم آخر ، ولا جاء مصادفة ، ولا ست سدى . . ومن ثم فهذه الحضارة عميقة الحدود ، أصيلة الوجود ، وجدت لتلبية حاجة طبيعة للبشرية في موعدها لتاريخي مناسب كذلك . ومن ثم لا تكون قبلة للإعدام ، لو احتريا أن تصدر عليها هذا الحكم ، لقطاع الجرائم التي ارتكبتها في حق الإنسان !!!

وعلى فرض أننا نملك تنفيذ حكم كهذا . أر على فرض أن «تتأزأ» حدذا قد انبعثوا في هذه الأرض يحصمون حضارتها - كما حطموا حضارة بغداد - ويلقون بكتب هذه الحضارة في أمتار الرين والرين والسين والنيمنس واليوتوموك . . أو أن حفنة من محنن البشر الذين يمكنون القبلة الذرية والقبلة الأيدروحينية والصواريخ وما إليها ، قد أصابتهم (النوبة) ! في لحظة فأطلقوا الدمار على مراكز هذه الحضارة !

على أي فرض من هذه الفروض ، فإن تحطيم هذه الحضارة - على هذا النحو - يبدو لنا - من خلال نظرت البشرية المحدودة ، أنني لا تعلم حقيقة الخير والشر ، ولا تعرف شيئاً عن مآلات الأفعال - أنه ليس في صالح البشرية . وفي حدود هذه النظرة لا نملك أن نصدر حكم الإعدام على هذه الحضارة على الرغم من جرائمها الشعة ضد العصر الإنساني !

إذن . . كيف الخلاص ؟

* * *

الدكتور ألكسس كاريل يرى أن طريق الخلاص هو .

«مريد من عدم الإنسان يمكن إعادة إنشاء الإنسان»

«يجب أن يكون «الإنسان» مقياساً لكل شيء» . و لكن الواقع هو

عكس ذلك . فهو غريب في العام الذي ابتدعه . إنه لم يستطع أن يطمح
ديناه نفسه . لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . ومن ثم فإن التقدم الذي
أحرزته علوم الحماة على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التي عانت منها
الإنسانية . فالبيئة التي ولدتها عقول واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة
لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . . . إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً .
إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي
على وجه الدقة ، الجماعات والأمم الأحدة في الصعف ، والتي ستكون عودتها
إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها . ولكنها لا تدرك ذلك . إذ
ليس ما يحميها من الظروف التي شيدها العلم حولها . وحقيقة الأمر أن
مدينتنا ، مثل المديريات التي سبقتها ، أوجدت أحوالاً معينة للحياة ، من
شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحبة ، وذلك لأسباب لا تزال عامضة . . . إن
القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تولد عن نظمهم
السياسية والاقتصادية والاجتماعية . إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم
الحماة .

إن العلاج الوحيد للمكر لهذا الشر استتير هو : معرفة أكثر عمقاً
أنفسنا . . . فمن هذه المعرفة ستمكث من أن نفهم ما هي العمليات
الميكانيكية التي تؤثر بالحياة العصرية على وحداننا وحسما . وهكذا سوف
نتعلم كيف نكيف أنفسنا بالنسبة للظروف المحيطة بنا ، وكيف نغيرها . إذ لم
يعد هناك مهر من إحداث ثورة فيها . ولئن استطاع هذا العلم أن يلقي
ضوءاً على طبيعتنا الخفية ، وإمكاناتنا ، والطريقة التي تمكننا من تحقيق هذه
الإمكانات ، فإنه سمدنا بالإيصاح الصحيح لما نطرقه علنا من صعف
مسيولوجي ، كد الأمرضنا الأدبية والعقلية . إذ لا نملك وسيلة أخرى لمعرفة
القواعد - التي لا تليق - لوجوه نشاطنا العضوي والروحي ، وقييز ما هو محرم مما

هو شرعى ، وإدراك أننا لسنا أحراراً لنعبد فى بيئتنا وفى أنفسنا تبعاً لأهوائنا . .
وما دامت الأحوال الطبيعية للحياة قد حطمتها المدنية العصرية ، فقد أصبح
علم الإنسان أكثر العلوم ضرورة . (ص ٤٣ - ٤٥)

* * *

ونحن نهتف مع الدكتور كاريل : « مزيداً من علوم الإنسان » . ولكننا
لا نرى . معه أن هذا وحده يكفى ولاشئ مثله هذه لشقة المطبقة فى ماقد
نصل إليه من المريد فى علوم الإنسان ولا تقف - مثله - يائسين من « وسيلة
أخرى لمعرفة المواعيد التى لا يلبس لوحده شاطئ العصور والروحى ، وبعيز ما
هر محرم ، مما هو شرعى ، وإدراك أننا لسنا أحراراً لنعبد فى بيئتنا وفى أنفسنا
تبعاً لأهوائنا » . .

إن المزيد من علوم الإنسان ضرورى لنا لعرف منه على الأقل - أقصى
الإمكانيات التى فى طوقه ، طوق لعلم ، أن نبغها من المعرفة « بالإنسان » .
ونقف على حدود المجهول الذى لا حيلة لنا وراءه . فهذه المعرفة ضرورية
لنحدد - على صونها - ما الذى نملك وما الذى لا نملك من التصرف فى شأن
« الإنسان » لعلنا نلزم حدوداً ولا نتعداه . ولا نحيط وراءها فى التمه بلا
دليل ، كما فعلنا حتى اليوم ، بلا مبالاة .

والدكتور كاريل كان قد سبق فقرر لنا أن هناك أسباً لتحلف علوم الحياة
عن علوم الجهاد - ليست طارئة ولا وقتية - إنما هى ثابتة وطبيعية . أسباً
مرجع إلى عقد الحياة من جهة ، وإلى طبيعة عقلنا من جهة أخرى . ومن ثم
قرر لنا أن علوم الحياة لن تسع - فى يوم من الأيام - ما ملعته علوم الجهاد من
لدقة والجمال . . وبالضغط قل لنا بالمعاطة :

« إن معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من الساطة المعرة ،
والتمجرد ، والجمال التى ملعها علم المادة إذ ليس من المحتمل أن تحتفى

العاصر التي أحرث تقدم علم الإنسان .. (ص ٢٣) .
فمن العجيب - بعد ذلك - أن يجعل اعتماده كله ، في حل مشكلة
الحضارة ، وإعداد إنشاء الإنسان ، على «مزيد من علوم الإنسان»
ولكننا لكي نزيل هذا العجب ، يجب أن نواجه مشكلة دكتور كاريل
نفسه . فإن مواجهتها تفيدنا في تعيين الجهة التي يمكن أن يأتي منها الخلاص
الحقيقي ، والاتجاه الواحد الميسور للخلاص ..

إن هذا الرجل الواسع المعرفة ، العميق الحساسية ، الشديد الإخلاص ،
المتحرر المفكر ، الثائر على الحضارة الصناعية ، حتى يرى أن ليس هناك ما
هو أقل من « قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم السرى » .
إن هذا الرجل - على كل هذه الفصائل والخصائص فيه - رجل «عربي» نشأ
في البيئة الغربية ، بكل ملابس تاريخها القديم وحاضره لراهن . كما أنه
نشأ في ظل هذه الحضارة ، وفي بيئة « العلم » الذي هو طبعها الطاهر
وبسبب كل هذه الملابس فهو .. سجين هذه الحضارة .. مسجين
بيئتها وتاريخها وملابس حياتها . سجين الانطباعات والرواسب العميقة
العميقة في هذه البيئة .

ومن ثم لا يملك - حين يشب الوثبة الكبرى - أن يخرج من إطارها
ونريد هذه الحقيقة العجيبة إيصاحاً :

إن الدكتور كاريل يتنفس في بيئة امت بالعلم الحريري إيماناً مطلقاً فزده
قرنين من الزمان . . وعلى الرغم من أنها بدأت في هذا القرن الأخير تهيق من
شوة انتصار العلم ، وهي تراه يقف على عتبات المجهول عند آفاق كثيرة . فإن
رواسب القرنين المضيئين لا تزال عميقة وعظيمة . حتى عبد الدين عرفوا
«حدود العلم» ..

وهو في الوقت ذاته يتنفس في بيئة عرفت الدين - في أحسن صوره - تصوراً

روحياً مرفقاً شقيقاً ، واتصالاً بالعيب من غير وساطة مادية طاهرة ، وصلاة ودعاء يغيب فيها الصرد عن ذاته ، ويدمج في الملاء الأعلى .

وهذه هي الصورة الوصيئة المشرقة الحبيبة إلى نفس الدكتور لعالم الشاعر المتصوف المرفوف ، كما يصورها في كتابه هذا ، وكتابه الآخر الذي عنوانه « الصلاة » . وكما يكرر ضرورة توفير احوال المناسب لانطلاقها في حياة البشر وكما يثور على الحصار المادية الصناعية ، لأنها تمنعها ، وتخنق معها كل شعور بالحمال ، وكل نشاط قننى أو روحى أو دينى . .

ومن هاتين النقطتين : نقطة الإيمان بالعلم ، ونقطة تصور الدين على هذا النحو وفي هذه الحدود . . تنشأ مشكلة الدكتور كاريل ، وأمثاله من تهموم فضاة التدمير الذى تنشئه هذه الحصار في حياة الإنسان « وروحه » ، وتهتف بهم أشواقهم الروحية إلى استشراف حياة فيها للعقيدة الروحية مكان . . تنشأ المشكلة من ثورته على هذه الحصار ومن « سجنه » في إطار هذه الحصار في الوقت ذاته .

ومن هنا لا يرى أن هناك وسيلة أخرى لوقف هذا التدمير الذى تنشئه هذه الحصار في الكيان الإنسانى . .

إبه لا يملك مهبجاً للحياة إلا الذى يقره العلم . . لأن الدين - كما هو في بيئته - في أحسن صوره ، لا في الصورة الكريهة الممرة الأخرى - هو مجرد نشاط روحى ، ونهذيب خفى ، واتصال بالعوالم الغيبية . .

وهو في صورته هذه يمثل جانباً وحيداً من جوانب التكوين الإنسانى . فالاعتصار عليه شديد الخطورة ، لأنه معوق للنشاط الواقعى لعمى الإيجابى - المادى - وهو يحذر أشد التحذير من أن يكون لهروب من الحصار إلى مثل هذا العالم الذى لا يحوى إلا النشاط الروحى . وهو محق تماماً في تحذيره هذا . إذ كن لا ينشئ إلا نكسة إلى « الرهبة » التى داقت منها أوروبا ما ذقت في

تاريخها ، والتي انتهت - كما أسلفنا - إلى الحموح المادي الكافر الغليظ الجافي
فأما لو فكر في أن يكون للحياة منهج ديني واقعي فإن صورة كريمة
مفزة تحال له لأنها الصورة التي عرفت بها كذلك أوروبا . صورة الكنيسة
الطاغية التي تفرص تصوراتها الخرافية على العلم ولعلماء وعلمى الحياة
والأحياء . . . وهي صورة كذلك أمر وأدمى . . .

لا مهر إدن - لأمثال هؤلاء المحلصين المسكين - إلا أن يلجأوا إلى « العلم »
وإلى العلم وحده حتى فيما يحشونهم أنفسهم أن العلم لن يصل بهم فيه إلى
نتائج حاسمة قطعة كلتي وصل إليها في عالم المادة
ولكن ماذا سدهم ؟ ماذا يملكون لبشرية غير هذا ؟

* * *

ولكننا نحن نملك . . .

نحن - أصحاب المذهب الإسلامي للحياة - نملك للبشرية ما لا يملكه أحد
آخر على ظهر هذا الكوكب . و نملك أن نقذف دكتور كاريل نفسه من حيرته
هذه ، وأن نستجيب لصراحه المحلص العميق الحاد !!!

ونحن - أصحاب المذهب الإسلامي للحياة - ندرك من دراستنا لموقف
الدكتور كاريل الذي يستحق لعطف واثراء أننا وحدنا مكلفون أن نتقدم
لحمل العبء ، ولبدل البشرية على طريق الخلاص ، ونسئ هذا الطريق
أيضا .

نحن نملك منهجا للحياة ، لا يعادى العلم مطلقا ، ويرحب بمزيد من
علوم الإنسان على وجه الخصوص . ولكنه في الوقت ذاته لا يكل هذا العلم
وحده - ساء الحياة الإنسانية ، إنما يضع الإطار العام الذي يعمل فيه العلم
ويعمل فيه العقل ، في دائرة مأمونة

هذا الإطار من صنع الذي « يعلم » حق « العلم » حقيقة هذا الإنسان

وطفرته ، وطاقاته ، وحاحته الحقيقية فلا تحفى عليه من الإنسان حافية !
ولا يصع أمام عشرات أسائل ومثاتها فى حياة لإنسان وتركيبه علامة ستفهم
واحدة؟!

وهو إطار واسع جدًا ، شامل للإنسان كله تدور الحياة البشرية فى
داخله على محور ثلث . فتتحرك دائيًا حول هذا المحور ، وداحل هذا الإطار ،
حركة نامية متجدده ، وهى فى الوقت ذاته أمة سالمة .

ومنهجا هذا لا يجعل الدين مجرد ذلك الشاطئ الروحى الذى لا يعرف
دكتور كاريل صورة غيره للدين . . إنما هو يجعل الدين بوتقة الحياة كلها . .
تصهر فيه ، ثم تشكل فى جميع صورها وألوانها ، كما يجعله هو الإطار الذى
تزاوئ الحياة كل نشاطها فى داخله وهو المحور الذى تشد الحياة كلها إليه
واعقل والعلم والصناعة والاقتصاد والسياسة والصلاة والدعاء والاتصال
بالملا الأعلى ظواهر لهذا النشاط حول هذا المحور وداحل هذا الإطار . إن
منهجنا يعهم « الدين » على أنه هو منهج الحياة الإنسانية بكل مقوماتها
المهح لدى وضعه الله ، وارتضى أن تسير وفقه الحياة .

ومن ثم نجد طريقًا للإخلاص . يحتوى - فى بعض مرحله - طريق الدكتور
كاريل ، بلا تعرض ولا تخاصم ولا شفاق



إن منهجا يبدأ من نقطة سابقة حدًا على النقطة لتي يبدأ منها دكتور
كاريل ، والكثيرون غيره من اسخلصين الغربيين ، الدين لا ينقصهم
الإخلاص ولا تنقصهم الخبرة ، ولا تنقصهم الرعة فى تدارك البشرية من
الهاوية التى تنحدر إليها . ويكهم مع هذا « سجناء » ببتهم وحضارتهم .
أبعد حظاهم وثبة فى داخل القمص لا تتعداه إلى منهج مبتكر من أصوله
لأنهم لا صلة لهم بهذا المهح من الناحية التاريخية ولا من الناحية الشعورية -

على فرص معرفتهم به من الناحية العلمية - إذ المعول في مثل هذه المواقف
الفاصلة على روائس التاريخ وكوامن الشعور
منهجنا يبدأ من نقطة تصحيح مركز الإنسان في هذا الوجود . وتعين
مكانه ودوره ، ووظيفته وحقوقه وواجباته .

إنه ليس إلهًا ينازع « الآمة » ! وتنازعه . وليس كذلك حيوانًا جاءت
سيادته على الأرض مصادفة ، وقد يقوم مقامه في هذه السيادة غداً قط أو فأر !
وليس آلة تحسب قيمته بقوة « الأحصنة » التي يساويها في قوة التحريك
والإدارة . وليس عبدًا للمادة ، ولا هو لوحة تطع فيها المادة (أو الطبيعة) ما
تريد . وليس عبدًا للآلة ، نصرف حياته وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هي
وتتقلب . وليس « نمر » ولا مجموعة « نمر » تتحرك داخل لقطيع ، بلا
شخصية مميزة ، ولا كيان « فردي خاص »

وليست المرأة أحولة للشيطان ، وليس اتصال الجسدين رجسًا من عمل
الشيطان . وليست البدة والمتعة هي عاية هذا الاتصال ، ولا هوى دافعه
ومناعه على السواء . وليس الحسناء سواء في وظيفتها وعملها ، وليس مجرد
التمفرقة بينهما في التكوين البيولوجي عشًا لا معنى له ولا هدف وراءه . إلى
آخر ما مرت به النظرة إلى « الإنسان » من تحبط واضطراب .

كلا . . . إنني الإنسان . . . « إنسان » وليس إلهًا - هو سيد هذه الأرض وهو
عبد الله في أن . وهو مسلط على هذه الأرض ، ومسخر به كل ما فيها ،
وعليه أن يحلف الله - سبحانه - فيها ، ويعبر فيها ويندل ، وينمى فيها
ويرقى ، وهر معانٍ على استعلان كورها وطاقتها معانٍ بها وهبه الله من قوى
وطاقات ، ومعانٍ بها في نواميس هذا الكون من عون للإنسان في هذا
المجال . وفي الوقت ذاته هو من نفسه في حرم مقدس . حرم من حرمان
الله لا يمسسه إلا بإذن الله ، ولا يعمل فيه إلا بمنهج الله . ولم يرهب معرفة

أسرار هذا الحرم - إلا بقدر - ولم يسمح له أن يضع له من نلقاه نفسه المباح والخطط واشتراط والأوصاف ولم يؤذن له أن يتحد إلهه هو . .

وهو « إنسان » - وليس حيواناً - هو مخلوق قد في هذا الكون محبوق قصداً ، ولخلقته حكمة ومزود بطبيعة خاصة - فوق طوائع لحيون - وبخصائص معينة - فوق خصائص الحيوان - لأداء وظيفة معينة في الأرض لا يؤديها الحيوان وله - من ثم - مقام كريم ، يعادل وظيفته الكريمة . . كان كذلك يوم نشأ ، وهو كذلك اليوم ، وسيكون كذلك غداً . . وانذار حاصوا عن هذه الحقيقة يعودون إليها مرغمين الآن . .

وهو « إنسان » - وليس آلة ، ولا عبداً للآلة ، ولا من صنع المادة ، ولا من صنع الآلات - وهو كائن معقد شديد التعقيد ، ليست له ساطة المادة ولا طواعية الآلة . والذي نعلمه عن تعقيد قليل - ونحن في أول الطريق من علوم الإنسان ، ولم نصل بعد إلى المزيد من علوم الإنسان الذي يتطلبه دكتور كاريل - ومع ذلك فقد واجهتنا « الحياة » بتعقيد المحيف الذي لم نواجهها به المادة ، وواجهنا « الإنسان » بتعقيد أشد هولاً . .

فمن المرأة المتهورة المتهجمة على « العلم » وقواعده ، الزعم بأن هذا الإنسان مادة ، والتعامل معه كالتعامل مع المادة . ومن التخطط أن يزعم أنه كآلة ويعامله كما نعامل الآلة ثم من لتوقع الغيظ أن نقول . إن الآلة (أداة الإنتاج) هي الإله الذي يغير فيه ويدل كما يشاء !!!

وهو « إنسان » - وليس « حرة » ولا فرداً من القطيع - هو إنسان يتمير أفرادهم بعضهم من بعض ، ويتمتع كل فرد بدائية مستقلة لا نظير لها ، ووحداية حقيقية - رغم شراكتهم جميعاً في خصائص إنسانية عامة - ولكل فرد منهم « خصائصه الدائية » إلى جانب « الخصائص الإنسانية » . . ومن ثم ينبغي أن يكون النظام الاجتماعي ، والطعام الاقتصادي ، والنظام السياسي والطريقة

الفية للعمل في المصانع وغيرها (التكنولوجيا) مبنية على أساس ملاحظة
« الخصائص الإنسانية » العامة أولاً . و « الخصائص الفردية الذاتية » ثانياً
فلا يحشر الجميع في نظام للعمل كالمقطيع . ولا يكون عمل الفرد في المصنع أو
في أي مكان ، بديلاً عن عمل الآلة ، المتماثلة الغرض والطرق .

وحين تحترم خصائص الإنسان العامة ، وخصائص الأفراد الذاتية ، فلن
يتعذر على المهندسين والمديرين إيجاد طرائق العمل الفنية التي تحافظ على هذه
الخصائص وتلك ، ولن يتعذر على « التكنولوجيا » أن تضمن الإنتاج الكبير
وتضمن في الوقت ذاته المحافظة على هذه الخصائص وتلك ، فلا تسحق
« الإنسان » ولا تسحق « الفرد » في عمل أو نظام .

وهو « إنسان » من ذكر وأنثى من نفس واحدة ، نعم . . ولكنها
حسان ومهجنات يعرف هذه الخصيفة شطريها ، ويكمل لشطري النفس
لواحدة حقوقاً واحدة - فيما يتعلق بالأصل الإنساني العام - ولكنه في الوقت
ذاته يفرص على كل منها واحداً مختلفة ، وفق الوظيفة الخاصة في العمران ،
ووفق طاقة كل منها ومجموعة تكاليفه ، فلا يكلف المرأة المسكنة مثلاً أن
تحمل وترضع وتربي ، وفي الوقت ذاته تعمل وتكدح وتشقى . بينما الرجل لا
يشاركها الحمل والرضاع والتربية . ثم يرغم بعد ذلك أنه يصف المرأة ويحترمها
ويرقيها ! ولا يكلف المرأة أن تهمل صناعة « الإنسان » تشتغل بصناعة
« الأشياء » والإنسان في منهجها أعلى من الأشياء ولا يجوز فيه أن تشتغل
المرأة المثقفة الماهرة الحكيمة بصناعة الأشياء وإنتاجها ، وأن تستجيب لأسائها
امرأة أخرى أقل ثقافة ومهارة وحكمة ، وأرحص أجراً بالطبع . لتشرف لها على
« الأبناء » بينما هي تشرف على « الأشياء » !

وهكذا - وفي ظل هذا المنهج ، ومن نقطته انسابية في البدء - يصبح المريد

من علوم الإنسان ذا قيمة في موضعه المناسب ، في مرحلة من مراحل الطريق
لا من بدء الطريق .

* * *

ومنهجنا لا يحدد نفسه - بعد ذلك - في مشكلة أمام الصناعة والحصارة
الصناعية .

إن هذا المنهج لا يرمض الحصار الصناعية ولا يحصر منها ، ولا ينكر
ها . إنها - ابتداء - وليدة اتجاهه المبكر إلى « العلم التحريبي » ، هذا الاتجاه
الذي انتقل إلى أوروبا عن طريق جامعات الأندلس وعدم اشرق - كما يقرر
بريقولت ودوهرنج وحب وغيرهم ممن لا يملكون إنكار الحقائق التاريخية -
وهذا الاتجاه هو أصلاً وليد نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان ، ودور
الإنسان في هذه الأرض ووليد طيبة المنهج الإسلامي إلى « واقعيات »
الكون ، وتدرجها والانتفاع بها وهو اتجاه مخالف تماماً لاتجاه الفلسفة الإغريقية
التجريدية ، التي ورثتها العقليّة الأوروبيّة ، ومخالف كذلك للتصورات
الكنسية ، التي كانت تجعل علوم لكون المادي « تصورات مقدسة ثابتة » سيما
الإسلام يطلق العقل البشري - في هذا المحار - يبحث ، ويجمع الشواهد ،
ويتبع الظواهر ، ويشئ القوانين ، ويتحرى وسائل استخدامها وتسجيرها في
عالم الواقع ويحطى ويصيب بلا تحريم ولا تأثيم .

وإذن فإن هذا المنهج لم يرمض الحصار الصناعية ، لأنها وليدة طرثفه
المنهجية التي انتقلت إلى أوروبا ، فرفضتها الكنيسة وشنت عليها حرباً شعواء
قاسية ، انتهت بهزيمة الكنيسة ، وانتهت - مع الأسف - بهزيمة الدين كنه
لارتباطه في أوروبا بالكنيسة . .

إن القاعدة التي يقوم عليها بناء الحصار الحديثة - من الدحية العلمية -
ليست غريبة علينا بل هي ابتداء من عندنا كما رأينا - ومنهجنا ينظر إلى

نتاج الحصار - من الناحية العلمية - نظرت إلى أمانة ردت إليه ، وساهم هو في شأتها مساهمة أساسية قبل خمسمائة عام . وبينه وبينها صلح قديم من حيث أن طبيعة المنهج الإسلامى التى تنهر من الفلسفة النظرية المجردة - على الإغريق - وتنتجه إلى « المثالية الواقعية » أو « الواقعية المثالية » كانت هى الخافر الأثر لهذا الاتجاه العلمى لتجريبى الذى لم تكن حذوره فى أوروبا . لا من الحضارة الإغريقية ولا من الحضارة الرومانية ، ولا من التصورات الكنسية هذه التصورات التى لم تكن سوى خليط من النصرانية السمحاء التى جاء بها عيسى - عليه السلام - والوثنية المخرفة التى أدخلها فيها قسطنطين وكنار رجل الدولة الرومانية حين دخلوا فى النصرانية ، وزاد طينتها بلة التصورات الكنسية عن الآراء العدمية الخاطئة التى كدت رائجة فى زمانها ، وثبتتها الكنيسة ، واعتبرتها آراء مقدسة من أكون المادى والحياة

إما الذى يرفضه منهجنا ويشدد فى رفضه ، من هذه الحصار ، هو شىء آخر غير الأساس العلمى التجريبى الذى تقوم عليه .

إنه سيرفض المذهب المادى « الوضعى أو الحسى » الذى يجعل المادة هى الوجود - ولا شىء غير المادة - وقد تحطمت هذه النظرية « علميًا » أو تكاد والحمد لله - والذى يجعل « الإنسان » تابعًا للمادة يتبقى منها فقط ، ويتكون من انطباعاتها - وحدها - عقله وتفكيره وتصوراته ، كما يكون جسمه سواء ، مع اعتباره سلبًا تجاه المادة سلبه مطلق (كومت وزملاؤه) . . . والذى يجعل تطورات التاريخ فى معزل عن إيجابية الإنسان ، ويرده فقط إلى أدوات الإنتاج (كارل ماركس وزملاؤه) .

كما سيرفض كذلك اسطرة الخوانية للإنسان التى أطلقها « داروين » والنظرة القادرة إلى دوافع الإنسان ، وحصرها فى وحل الجنس كما يرعى « فرويد » وهو يدرس « الشواذ » ويجعلهم هم « الإنسان » .

كذلك سيرفص منهجنا ما ترتب على هذه النظرات كلها من إقامة الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وإقامة نظم العمل وطرائق أساس إهدار آدمية الإنسان ، وخصائصه الإنسانية العامة أولاً ، وخصائصه الذاتية الفردية ثانياً ، وخصائص جسيه المتميزين ثالثاً ، واعتباره ترساً في الآلة ، أو بهيمة في القطيع . والاهتمام فقط بمضاعفة الإنتاج ، وتوفير وسائل إشباع الضرورات الجسدية - فحسب - مع إهدار أشواق الإنسان وحاجاته الأخرى في نظام الحصاره (كما يقرر الدكتور كريل) من حبه للجمال والفن ونشاطه الأدبي والديني . . (غير أن تصور منهجنا للنشاط الديني لن يكون في تلك الحدود الضيقة التي لا يعرف الدكتور كاريل سواها . بل سيكون معناه - كما قلنا - أن يكون إندين هو منهج الحياة الكلى ، الذى تتحرك في إطاره ، وتنمو بكل أنواع النشاط الإنسانى ومنه العمل والإنتاج والسياسة والاقتصاد ، والخلق والسلوك . والصلاة والنداء ، والاتصال بالملأ الأعلى والاتصال بالآلة والإنتاج سواء) .

وسيسندعى هذ تعديلاً في طرق الإنتاج الفنية « بحيث توائم بين الرغبة في مضاعفة الإنتاج والإبقاء على خصائص « الإنسان » العامة ، وخصائص الفرد الذاتية . وتعدين أوضاع الحياة الساسة والاجتماعية والاقتصادية ، بحيث توائم كذلك بين استقرار الحياة وتوازنها ، وإبقاء على الخصائص « الإنسانية » و « الفردية » مع الإبقاء - كذلك - على خصائص « الحنسير » من ذكر وأنثى .

* * *

ومنهجنا لن يجد نفسه في مشكلة أمام الاستمتاع بالتييسيرات الحضارية التى تتيحها الحضرة المادية وفنوها المتحددة للإنسان ، ولا أمام الاستمتاع بطبيبات الحياة الدنيا ، وكور الأرض وتاجها م تتيحه الحضرة المادية ، ولن

يحدث بكسة إلى رهبانية روحانية كالتى ابتدعتها الكنيسة فى أوروبا ، لمقومة
سبل لمتاع على الطريقة الرومانية ، أو - تتعبه أصح - اهرب من مواجعة الحياة
الدنيا .

فمنهج لا ينكر الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، ولا يحمّد الإبداع المذى
فى لأرض ، ومن ثم لا يحمّد وسائل المتاع بهذا الإبداع . بل أكثر من هذا ،
هو يعد ذلك حزة من وظيفة الإنسان فى هذه الأرض . فالحلاقة معاه القيام
على شئون هذه لأرض ، واستثمار خيراتها ، واكتشاف كنوزها ، والاستمتاع
بطلابها ، فى حدود منهج الله ، مع التوجه لله بالعبادة والشكر والاعتراف على
ما سخره للإنسان من طاقات فى نفسه ومن مدحرات فى هذه الأرض وكثيراً
ما من الله على عباده بما أنعم عليهم من المورد والتيسير التى كانت متاحة
لهم حينذاك ، وبشرهم بغيره مما سيأتى . كما عقب على ذكر نعمة الأنعام ،
وما تيسره للإنسان من متاع وراحة ومنفعة وجمال ، فقال بعد ذلك كله (ويحق
ما لا تعلمون) فما من شىء طيب تنتجه الحضارة المادية ، إلا ومهحها يعتبر
حقاً للإنسان أن يستمتع به فى حلال . .

ولكن هذا المنهج يرفض أن يستمتع الإنسان بحيرات الأرض وبتاح
اخصارة كما يستمتع الحيوان يرفض أن يكون الإنسان عبداً لندائده ، مقهوراً
عليه قهراً لا يملك معه إرادته ، ولا يملك أن يقف عند الحد لدى يؤمن معه
المتع ، فلا يؤدى الإفراط إلى الانحلال والدمار . ولنوار يرفض أن
يكون المتاع فى ذاته غاية غايات الإنسان فالإنسان أكرم من هذا وأرفع ،
وغاية وجوده الأساسى أكرم من هذا وأصحم وهو لا يكون «إنساناً» إلا بأن
يدرك غاية وجوده ، وأن يسيطر على شهواته ولندائده وأن يقف عند الحد المأمون
منها . . بإرادته . .

« والدين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

(محمد : ١٢)

إن المحافظة على « إنسانية الإنسان » هدف أساسي في هذا المذهب فهو لا يملك أن يؤدي وظيفته الصدة في الأرض ، إلا بتكوينه هذا الفد . فأى عامل مفروض من المذهب الإسلامى .

وهكذا يملك عن طريق هذا المذهب - « وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التى لا تدين لوجوه شاطنا العصورى والروحى ، وتمييز ما هو محرم مما هو شرعى ، وإدراك أننا لسنا أحراراً لنعدل فى بيتنا وفى أنفسنا تبعاً لأهوائنا » . . فهذا المذهب يبين لنا هذا كله . ولا يتظر بن حتى تصل « علوم الإنسان » إلى الحد الذى تجزم فيه برأى فى هذه القصبة الخطيرة ، التى يتوقف عليها بقاء « إنسانية الإنسان » ، بقاء الحضارة فى المستوى الإنسانى . فكل الضروريات الأساسية التى من هذا النوع ، رحمتنا الله من توقعها على علمنا - أو حتى على إرادتنا - وجعلها أحياناً تتم بدون إرادة ما ، كهضم الطعام وامتناعه ، لبقاء الحياة . وكذلك هنا لم يدعنا نتحيط فى جهالتنا لتمييز « ما هو محرم مما هو شرعى » بل بين ذلك فى منحه حياتنا بياناً شافياً . وأماح لنا الطيبات كلها ، ولم يحرم علينا إلا أشياء قليلة - يعلم هو أنها تؤذيها ، سواء علمنا نحن أم لم نعلم - ورسم لنا الحدود التى نحفظ فيها إنسانيتنا وخصائصها ، مع المتاع بطيبات الحياة وتيسيرات الحضارة فى كل زمان

* * *

ومنهجنا لن نجد نفسه فى مشكلة أمام مؤسسات الحضارة الاقتصادية التى يقوم بقاء الحضارة الصناعية عليها لشتى مرفق الحياة . (وإن كنت لا أحب أن أدخل فى تفاصيل فقهية فى هذا الموضوع لأسباب التى سأندبها فى المصل التالى) .

ولكنه سيرفص حتماً الأسس الربوى الذى يقوم عليه معظم هذه المؤسسات سيظهرها من هذا الرجس ، ويخرج منها دود العلق ، الذى يمتص دماء الملايين . ولن يسمح بنظم يجعل حصيلة كد ابشرية فى جميع أنحاء لأرض : من عمال وصناع ونجار ومديرى مصانع وأصحاب أرض وعمائر وصناعات . كله . يرجع إلى بضعة آلاف من مؤسسى البيوت المالية وبوك الإقراض فى العالم ، فهؤلاء هم الذين تكبد البشرية كلها لتؤدى لهم «فوائد» أموالهم المتداولة فى أنحاء العالم . وهؤلاء هم الذين بوجهود الاستثمار - مباشرة أم غير مباشرة - إلى المشروعات الأكثر ربحاً - للوفاء بفوائد الأموال - وهى التى تحطم خصائص الشرية وأخلاقيها ومقوماتها فى العالم . وهؤلاء هم الذين يسببون الأزمات الدورية المعروفة فى النظام لرأسمالى . وهؤلاء هم الذين تشأ عن خططهم الجهنمية اللعينة أزمات التعطل ، والفساد الخفى الذى يتبعه كما نشأ الخطط الاستعمارية - فى صورها المختلفة ، وآخرها «استعمار الاستثمار» بعد ما فشل «استعمار الاحتلال» - وعشرات من المكبات العالمية الأخرى . . ومن ثم تختفى هذه الولايات التى تعاني منها البشرية كلها ، و تحف حدثها على الأقل . حين يختفى النظم الربوى . .

أما المؤسسات الاقتصادية ، فلا ذنب لها فى ذاتها ، ولا صبر منها إذا اختفى هذا العصر الخبيث (وذلك مع الاحتياط بروحها بطرى فى عدم وضع أحكام فقهيّة مفصلة الآن) . .

على أن طرق الإنتاج الحالية ، المؤسسة على قاعدة إنتاج أكبر قدر بأقل أجر . والتى ينشأ عنها تحطيم خصائص الإنسان فى المعامل والمصانع - كما يقول دكتور كاريل - يرجع قسط كبير من سوائها للنظام الربوى . من ناحية أن الأموال المستخدمة فى الاستثمار معظمها قروض ربوية . فهناك حرص شديد -

فوق الحرص الذى تنشئه أثره لرأسمالية وحى المادية - على الربح ، الذى يفى
بقوائد القروض المستثمرة ، وتفضل منه فصلة . ولو كن هذا على حساب
إنسانية العامل ، وخصائص الإنسان . .

وتعدين طرائق الإنتاج ليس شيئاً مستحيلاً . فلكفر الإنسانى الذى أنشأ
هذه الطرائق فى ظل أنظمة رأسمالية ربوية - أو مادية مذلة للإنسان بصفة عامة
- يملك أن ينشئ طرائق أخرى ، تجمع بين الغايتين كما أسلفنا . متى رفع
عنه كابوس التصورات المذلة للإنسان ، وسيط القوائد الربوية التى تسوق
الاستثمار والإنتاج فى كل مكان

* * *

إن مهحننا هو الذى يقيم الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية
ولأخلاقية والتعليمية والزبوية المتكاملة ، التى تعيد « إنشاء الإنسان و تتم
شخصيته الإنسان الذى أضعفته الحياة بعصرية ومقاييسها الموصوعة » كما
يريد دكتور كاريل من « علوم لإنسان » أن تفعل !

فإعادة إنشاء الإنسان لا يقدر عليها الإنسان . إن الذى خلق الإنسان
هو الذى يملك أن يعيده ، ولذى أنشأه فى أحسن تقويم هو الذى يملك أن
يرده إلى تقويمه ، بعد أن يكون قد هبط إلى أسفل مسافدين

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين إلا
الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . (التين : ٤ - ٦)

إن الذى يحاوله دكتور كاريل والعلماء المؤسسون من أمثله ، أو النيورون هي
« الإنسان » - بصفة عامة - أكثر من طاقة الإنسان . إهم يطلبون عمل إله
وقدرة إله ، وعلم إله ، وهيئات أن يهض اشربها هو من خصائص الله .

إن الإنسانية تتردى في الهاوية . . هذا صحيح . وتنتحر بيدها . . هذا صحيح . وتختنق بالظروف العدائية التي أنشأها العلم حولها « الظروف التي تجعل الحياة ذاتها مستحيلة » . . هذا صحيح . .

إن خصائص الإنسان التي صارت إنساناً ، والتي بدونها لا يملك المضي في خلافة الأرض ، والسيادة على عاصرها . تدمر تدميراً شتعاً ، والإنسانية لا تدرى ، ولا تستمع لأصوات العقلاء الذين يهدرونها بالخطر وإن استمعت فلا تملك أن تتوقف عن المضي إلى الهاوية . .

وهناك مهج واحد . . واحد لا يتعدد . . هو الذي يملك أن يمد إليها يده بالإقناذ .

وهذا طريق واحد . واحد لا يتعدد . هو طريق الخلاص .

ولكن كيف يُقدّم هذا المهج للبشرية ؟ وكيف يُشرع هذا الطريق ؟؟؟
ذلك فصل الختام في هذا الكتاب .

طريق الخصال

إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع . إنها تستجيب لمنهج
حتى متحرك ، مجسم ، يمثل في حياة جماعة من البشر ، مترجم إلى واقع تراه
العين وتلمسه اليد ، وتلاحظ آثاره العقول . . .

إنها تستجيب للمنهج الإسلامي في صورة . . . مجتمع إسلامي . .
وعلى ما لقينته البشرية من اللأواء والنصب في هاجرة لتيه لمقفر الذي
سارت فيه بلا دليل . .

وعلى كل ما عانته من التجارب القاسية ، والتجبط المؤلم ، وهي تنهض
وتعثر ، وتترف حروحها طوال الطريق . ١

وعلى كل ما يهدد خصائصها من الدمار ، ويهدد حياتها من السوار ، في
طل هذه الحضارة المادية التي أقيمت دون علم بالإنسان ، ودون مراعاة
لخصائصه في كل زمان !

وعلى كل ما يدرك العقلاء فيها من جسامه الخطر الذي يتعرض له وجوده
ذاته ، وتعرض له خصائصها لشمينة .

على الرغم من هذا كله ، فإنه ليس من عادة البشرية أن تستجيب لمنهج
مقروء أو مسموع . . ما لم يتمثل في صورة «مجتمع» يعيش هذا المنهج ،
ويعيش له ، وتمثل فيه خصائصه ومزاياه . . .

وألف كتاب عن الإسلام . وألف خطبة في مسجد أو قاعة أو ميدان .

وَأَلْفَ قَلَمٍ فِي الدِّعَايَةِ لِلْإِسْلَامِ . وَ أَلْفَ بَعْثَةٍ مِنَ الْأَزْهَرِ أَوْ غَيْرِ الْأَزْهَرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ . كُلُّ أُولَئِكَ لَا يَعْنِي عَنَاءٌ مَجْتَمَعٍ صَغِيرٍ يَقُومُ فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْأَرْضِ . يَعِيشُ بِمَنْهَجِ الْإِسْلَامِ . وَيَعِيشُ لِمَنْهَجِ الْإِسْلَامِ ، وَتَتِمُّثِلُ فِيهِ خِصَائِرُ هَذَا الْمَنْهَجِ ، وَتَتِمُّثِلُ فِيهِ صُورَةُ الْحَيَاةِ فِي الْإِسْلَامِ !!

وَأَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ الْعَالَمِيُّونَ مِنَ الصَّهْيُونِيِّينَ وَالصَّلَسِيِّينَ الْمُسْتَعْمَرِينَ يَعْرِفُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ جَيِّدًا . وَمِنْ أَجْلِ مَعْرِفَتِهِمُ الْعَمِيقَةَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ . هُمْ قَدْ يَسْمَحُونَ بِشَرِّ الْكُتُبِ عَنِ الْإِسْلَامِ - فِي حُدُودٍ - وَبِإِلْفَاءِ الْخَطْبِ عَنِ الْإِسْلَامِ - فِي حُدُودٍ - وَبِعَرْضِ الْأَفْلامِ عَنِ الْإِسْلَامِ - فِي بَدْرَةٍ ١ - وَبِإِرْسَالِ الْبَعَثَاتِ لِلْإِسْلَامِ - فِي رَقَاةٍ ! - وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْمَحُونَ أَبَدًا - بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ سُلْطَاتٍ عَالِيَةِ صَخْمَةٍ حَادِيَةٍ وَظَاهِرَةٍ - بِقِيَامِ مَجْتَمَعٍ إِسْلَامِيٍّ - وَلَوْ صَغِيرٍ - فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْأَرْضِ - وَلَوْ فِي حَزِيرَةٍ بِالْمَحِيطِ !

ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْوَسِيلَةُ الْحَادِيَةُ الْوَحِيدَةُ « لِوُحُودِ » الْإِسْلَامِ ! وَهُمْ قَدْ عَانُوا مِنْ « وَجُودِ » الْإِسْلَامِ طَوِيلًا . إِذَا حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْدَافِهِمُ الْاِسْتِعْمَارِيَّةِ الْاِسْتِغْلَالِيَّةِ لِلْوَطَنِ الْإِسْلَامِيِّ وَلِلْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ . وَمَا صَدَّقُوا أَنَّ أَحْزَنَ مَا - كَمَا يَتَصَوَّرُونَ - عَلَى هَذَا الْخَارِ . فَهُمْ يَفْزَعُونَ مِنْ شَعْبِهِ وَلَا يَرِيدُونَ لَهُ « الْوُحُودَ » الْمَعْلَى بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . .

* * *

وَلَكِنَّ الْمَجْتَمَعَ الْإِسْلَامِيَّ . مَعَ هَذَا كُلِّهِ - هُوَ طَرِيقُ الْخُلَاصِ الْوَحِيدِ لِلْبَشَرِيَّةِ الْمَهْدَدَةِ بِالْذِمَارِ وَالْبَوَارِ .

إِنَّهُ الْاِسْتِحَاةُ الْوَحِيدَةُ لِبَدَأِ امْفِطْرَةِ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ . وَالْمِطْرَةُ فِي سَاعَةِ الْخَطَرِ تَنْتَبِهْ وَتَعْمَلْ ، وَمَهْمَا تَكُنْ فِي خَمَارٍ أَوْ دَوَارٍ !

إِنَّهُ صَرُورَةٌ اِسْهَابِيَّةٌ ، وَحَتْمِيَّةٌ مِطْرِيَّةٌ . وَمِنْ ثَمَّ مِنْ الدَّوَاغِ بِبُرُوزِهِ أَقْوَى مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ مَعْقُوقَةٍ . أَقْوَى مِنَ الصَّهْيُونِيَّةِ الْمَاكِرَةِ وَالصَّلَسِيَّةِ الْمُسْتَعْمَرَةِ . وَأَقْوَى

من الأجهزة المسطرة في كل زاوية من زوايا الأرض . وأقوى كذلك من جهل
أهل الإسلام بالإسلام ، وبلادتهم وانعمارهم في التيار الجارف العام !
إنه لا مفر من قيام هذا المجتمع . . المجتمع الإسلامي .
إنه إن لم يقم اليوم فسيقوم غدًا . وإن لم يقم هو فسيقوم هناك . ولا نريد
أن نتبأ عن مكان أو زمان ، فنحن - البشر - نقف تقديراتنا دائمًا عند ستر
العيب المسدل ، الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله .

* * *

إلا أن الذي ينبغي أن يقال . هو التحذير من وقع هذه الكليات !
التحذير من الأمن العريض الذي قد تنشئه في بعض لصدور !
إن حتمية قيام هذا المجتمع بوصفه ضرورة إنسانية لا تقاذ إنسانية .
وبوصفه الترخة لعمية لمسهج الإلهي الذي لا بد غالب . .
إن هذه الحتمية ليس معها ، أن الطريق إليه نزهة مريحة ، ولا أنه هناك
على قيد خطوات . .

كلا إن حتمية الميلاد لا تغني من آلام المحاص !
والطريق إلى لمجتمع الإسلامي طويل وشاق . وملء بالأشواك وأعسر
ما في هذا الطريق هو أن ترتفع نحن بتصوراتنا ، وبأفكارنا ، وبأحلاقنا ،
وسلوكنا - ثم نواقعا الحصارى المادي - إلى مستوى الإسلام .
ولكنه - بعد هذا كله - ضرورة إنسانية وحتمية فطرية . ولا بد له من
ميلاد . ولا بد للميلاد من مخاص . ولا بد للمخاص من آلام !

* * *

ولا بد من معرفة ملامح هذا لمجتمع وخصائصه الداتية بوجه عام ، ولا بد
من تصور طريقة مواجهته بلحصارة القائمة ومشآئها القائمة ومؤسساتها
العاملة . وأوضاعها هنا وهناك .

ولكن متى ينبغي بيان هذا وذاك ؟

فأما المعرفة العامة بلامع هذا المجتمع وخصائصه الذاتية فمعتقد أنها
ضرورة منذ الآن ، وقد أشرنا إلى بعضها في شأيا فصول هذا الكتاب .
وفي حدود جهدي الخاص : لقد أعددت هذا بحثاً ضحياً مفصلاً تحت
عنوان . « نحو مجتمع إسلامي » بحثاً آخر عن « خصائص التصور
الإسلامي ومقوماته » وكلاهما يكمل الآخر في هذا المجال
وأم معرفه كيف يواجه المجتمع الإسلامي حياة الحاصرة ، وكيف يتصرف
في أوضاعها القائمة - وعلى الأخص صباغة هذا في قالب فقهي مقنن - فهذا ما
أعتقد أن كل كلام فيه - في غير الإطار العام - سابق لأوانه . بل أشبه شيء
باستنبات البذور في الهواء !

إن محاولة وضع أحكام تشريعية فقهية إسلامية لمواجهة أفضية المجتمع
الذي يعيش فيه البشرية ، والذي ليس إسلامياً ، لأنه لا يعترف بأن الإسلام
منهجه ، ولا يسلم للإسلام أن يكون شريعته . .

إن محاولة وضع أحكام تشريعية لأفضية مثل هذا المجتمع ، ليست من
أحد في شيء . وليست من روح الإسلام احادة في شيء . وليست من منهج
الإسلام الواقعي في شيء .

إن الفقه الإسلامي لا يستطيع أن ينمو ويتطور ويواجه مشكلات الحياة
إلا في مجتمع إسلامي - مجتمع إسلامي واقعي ، موحود فعلاً ، يواجه
مشكلات الحياة التي أمامه ، ويتعامل معها ، وهو مستسلم ابتداء للإسلام !
إنه عبث مصحح أن نحاول مثلاً إيجاد أحكام فقهية إسلامية للأوضاع
الاجتماعية والاقتصادية في أمريكا أو روسيا ، فأمريكا أو روسيا كنتاجها لا
تعترف ابتداء بحاكمية الإسلام !

وكذلك الحال بالسة لأي بلد لا يعترف بحاكمية الإسلام !

وكل فقه يراد تنميته وتطويره في وضع لا يعترف ابتداءً بحاكمية الإسلام، هو عملية استنبات الدور في الهواء . . هو عث لا يليق بجذبه الإسلام!

إن مشكلات «المجتمع الإسلامي» في مواجهة الحضارة القائمة، ليست هي مشكلات أي مجتمع آخر. إنها ليست مشكلات حاضرة حتى هيئ لها حلولاً جاهرة. إنها مشكلات ستشأ بشكل خاص، وبهجوم خاص، وفق ظروف في عالم اغيب، ووفق ملابسات لا يمكن التكهّن بها الآن.

فمن العث الجري وراء افراصات لم تقع بعد، على طريقة «الأرايين»^(١) التي يمحّها الحادون من مشرعي وفقهاء الإسلام.

كما أن مشكلات المجتمع الحاضر في مواجهة الحضارة لقائمة ليست مشكلات «مجتمع إسلامي». . فهذا المجتمع الإسلامي لم يوجد بعد - منذ أن اتخذت شرائع غير شريعة الإسلام لتصريف الحياة - لم يوجد، حتى تكون هذه مشكلاته. والإسلام ليس مطلوباً منه - ولا مقبولاً كذلك - أن يوجد حلولاً فقهية لمجتمع عبر إسلامي. مجتمع أشأ مشكلاته هذه بسبب أنه لم يعرف الإسلام، أو بسبب أنه هجر الإسلام، إن كان قد عرفه من قبل.

فقيم الجهد؟ وقيم العناء؟

به يس الذي ينقص الشريعة بقيام مجتمع إسلامي هو وجود فقه إسلامي «متطور»! إنها الذي ينقصها ابتداء هو اتحاد الإسلام منهجاً وشرعته شريعة.

إن الفقه الإسلامي لكي يتطور، ينبغي أن يجد لثريته الذي يتطور فيها واثريته التي يتطور فيها لفقه الإسلامي هي «مجتمع إسلامي» تعيش في العصر الحاضر، بدرجته الحضارية، يواجه مشكلات قائمة بالفعل!

(١) الدين يسألون رأيت لو أن كذا وقع فما يكون الحكم؟ . .

بتكوينه الداتى . . ومواجهة المجتمع الإسلامى هذه اشكالات ، لن تكون
كمواجهة أى مجتمع آخر لها طبيعة الحال . .

ولكن هذه لمدىية - فيما يبدو - لا تبدو واضحة للكثيرين من المخلصين
العيورين على الإسلام « العقلاء » !

ومن أجل ذلك نكرر ونعيد ونزيد فى الإيضاح

إن كل ما يمكن قوله إجمالاً عن المجتمع الإسلامى أنه ليس صورة
تاريخية محددة الحجم والشكل والوضع . وأنت فى العصر الحديث لا
تستهدف إقامة مجتمع من هذا الطراز ، من حيث الحجم وأشكاله ووضع ،
إنما تستهدف إقامة مجتمع مكافئ من النواحي الحضارة المادية - على الأقل -
للمجتمع الحاضر . وفى الوقت ذاته له روح ووجهة وحقيقة المجتمع الإسلامى
الأول ، الذى أسس المهج الرسمى . باعتباره قمة سامقة فى روحه
ووجهته وحميخته الإيمانية وتصوره للحياة ، ولغاياته لوجود الإنسانى ، ولمركز
الإنسان فى هذا الكون ، ولخصائصه وحقوقه وواجباته وقمة سامقة فى
تناسقه وشماسكه . أما الشكل والصورة والأوضاع فتتحدد وتتجدد بتطور
الزمن ، وبروز الحاجات ، واختلاف أوجه النشاط الواقعى . بل آخر
الملابسات . الملابس المتغيرة المتحركة . . ولكن التى ينبغى أن يكون
تحركها - فى المجتمع الإسلامى - داخل إطار المهج الإسلامى ، وحواس محوره
الثابت ، وعلى أساس الإقرار بالوهمية لله وحده ، وإفراد الله سبحانه
بخصائص الألوهية دون شريك وأولى هذه الخصائص هى حق الحاكمية
واتشريع لعباده ، وتطويعهم لهذا التشريع .

ومن ثم فإنه ليس « الفقه » الإسلامى هو الذى نقيده فى إنشاء هذا

المجتمع - وإن كنا نستأنس به - إنما هو « الشريعة » الإسلامية والمنهج الإسلامي ، والتصور الإسلامي العام .

وهذا يتطلب استدعاء ، أن ترتضى جماعة من البشر اتخاذ الإسلام منهج حياة ، وتحكيمه في كل شأن من شئون هذه الحياة - أي إراد الله ، سبحانه ، بالألوهية والربوبية ، في صورة إفراده ، سبحانه ، بالحاكمية التشريعية - والحظيثة - لا قبلها - يوجد « المجتمع الإسلامي » . وبدأ في مواجهة الحياة القائمة ، سيما هو يكيف نفسه ، وأوصاعه وحاحاته الحقيقية ، ووسائل إشباع هذه الحاحات ، متأثراً بعقيدته ، ومتشعثاً من تصورات خاصة ، ومتأثراً بطريقته المنهجية الخاصة في مواجهة الواقع ، والاعتراف بما هو فطري من هذا الواقع ، وم هو ضروري لنمو الحياة السليمة ، مع رفض ما ليس فطرياً ولا ضرورياً للنمو ، وما هو صار ومعطر وساحق هذا النمو ، من ذلك الواقع . وفي خلال هذه المواجهة - بكل هذه الملاحظات - ينشئ أحكامه الفقهاء الخاصة ، أولاً بأول ، في مواجهة وضعه الخاص . .

وهنا . . نخدم هذا المجتمع الناشئ ما حسبناه وما نزال نحسبه سوء حظ و انقطاع نمو الفقه الإسلامي !

قد تكون هذه خدمة يسرها الله حكمة

ذلك أن المجتمع لو لم يولد سيئجه حينئذ مباشرة إلى شريعة الله الأصيلة . لا إلى آراء الرجال في الفقه . لأنه لن يجد في آراء الرجال - وهي مفصلة لعصور خاصة وظروف خاصة - ما يسوي قدمه ، إلا بعمديات ترقيع وتعديل . وعندئذ يعمل إلى الصياغة الأصلية الطويل العريض . (الشريعة) . . ليفصل منه ثوباً حديداً كاملاً ، بدلاً من الترقيع ولتعديل !

إن هذه ليست دعوة لإهمال الفقه الإسلامي ، وإهدار الجهود الصحيحة

العظيمة التي بددها الأئمة الكبار . والتي تحوى من أصول الصناعة التشريعية ، ومن نتائج الأحكام الأصيبة ، ما يفوق - في نواح كثيرة - كل ما أنتجه المشرعون في أنحاء العالم .

ولكنها فقط بيان للمهج الذي قد يأخذه المجتمع الإسلامى الذى ينشأ - عندما ينشأ - وبيان لطبيعة المهج الإسلامى فى إنشاء الأحكام لفقهية إنشائها فى مواجهة الواقع لفعل للمجتمع الذى يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام .

إن تلك الثروة الضخمة من الفقه الإسلامى ، قد ولدت ونشأت ، يوماً بعد يوم ، فى مجتمع إسلامى يوحه لحياة بعقيدته الإسلامية ومهجه الإسلامى ، ويعترف ابتداء بحاكمية لإسلام له ، ولا يعترف بحاكمية مهج آخر غير الإسلام - مهما يكن فى سلوكه أحياناً من مجادة جرئية للإسلام ولكن الخطأ فى السلوك والانحراف فى التطبيق شيء ، وعدم الاعتراف ابتداء بحاكمية المهج الإسلامى كله شيء آخر . الأول يقع فى اجتماع الإسلامى ويطل مع ذلك مجتمعاً إسلامياً ، يصح أن ينمو فيه الفقه الإسلامى ويتطور . ولثانى لا يقع ، لا فى مجتمع غير إسلامى . مجتمع لا يصلح بيئة لنمو الفقه الإسلامى وتطوره ، لأنه مجتمع حاهى لا علاقة له بالإسلام ، مهما ادعى لنفسه صفة الإسلام !

وشىء آخر . .

إن لفقه الإسلامى ليس منفصلاً عن الشريعة الإسلامية والشريعة الإسلامية ليست منفصلة عن العقيدة الإسلامية . وافقه والشريعة والعقيدة ونظام الحياة كل لا يتجزأ فى التصور الإسلامى . ومحال أن يكون هناك إسلام ولا مسلمون ولا مجتمع مسلم ، إذا تمزق هذا الكن الموحد مرقاً وأجزاء . وفى أى نظام احتماعى آخر غير النظام الإسلامى - تكفى المعرفة بأصول

التشريع وطرق الصناعة ،المقهيبة ليصبح للرجل القدرة على وضع الأحكام القانونية . .

أما في النظام الإسلامي فإن مجرد المعرفة بأصول الصناعة لا يكفي . فلا بد من أمرين :

١ - مراولة العقيدة والمهح في احياة العامة للأمة

٢ - مراولة العقيدة والمهح كذلك في الحياة الخاصة للمشرع !

وهذا ما يجب أن نعرفه ، ونحذر من مخالفة ونحن نحاول - الآن تسمية الفقه الإسلامي وتطويره . هذه المحاولات التي نندلها حمهرة محلصه من رحل الفقه والشرية في شتى أنحاء الوطن الإسلامي ممن يريدون أو يشيرون بسمية الفقه الإسلامي وتطويره ، لمواجهة الأوصاع والأنظمة والمؤسسات والمخاحات القائمة في المجتمعات الخاصرة

إنهم - مع احترامى الكبير هم ولتجواب مع شعورهم المخلص ورعبتهم المشكورة ، وتقديرى للجهد الناصب الذى بذلونه - يحاولون استئست الدور في اموء . وإلا فأين هو " لمجتمع الإسلامى " ، الذى يستنتطون له أحكاما فقهية إسلامية يواحه بها مشكلاته ؟

المجتمع الإسلامى هو الذى يتخذ المهح لإسلامى كله منهحا لحياته كلها . وبحكم الإسلام كله في حياته كلها ، ويتطلب عنده حلولاً لمشكلاته مستسلماً استدء لأحكام الإسلام . ليست له حيرة بعد قضاء الله

فأين هو هذا المجتمع ابيوم ؟ أين هو ؟ في أى راوية من روايا الأرض ؟ إن كل حكم فقهى يوضع الآن لمواجهة مشكنه قائمة في المجتمعات التي ليست إسلامية ، لن يكون هو لذى يصلح ويواحه الراقع في مجتمع إسلامى وإذا قامت فلن تكون هى بحجمها وشكلها ، ولن تكون طريقة المجتمع في مواحهتها - وهو إسلامى - هو طريفته في مواحهتها وهو غير إسلامى ، ولأن

عوامل شتى ، وملاسات شتى ، تجعل طبيعة المجتمع الإسلامى وطريقته في مواجهة الحياة ومشكلات غير طبيعة وطريقة المجتمعات غير الإسلامية هذه بديهيّة . فيما أظن . .

إن أنا بكر وعمر وعلنا وابن عمر وابن عباس . ومالك وأبا حنيفة وأحمد ابن حنبل والشافعى . وأما يوسف ومحمد والقرافى والشاطبى وابن تيمية وابن قيم الجوزية والعر بن عبد السلام وأمثهم (عليهم رضوان الله) . . كانوا - وهم يستنبطون الأحكام . .

أولاً . يعيشون في مجتمع إسلامى يحكم الإسلام وحده في شتونه ، ويسجد الإسلام وحده مهتأ لحياته - حتى مع بعض المخالفة الجريئة في بعض العصور - ويواجهون الحياة بهذا الملهع وبأثاره في نفوسهم . ثانياً : يراولون العقيدة الإسلامية والمهع الإسلامى في حياتهم الخاصة ، وفي إطار المجتمع الإسلامى الذى يعيشون فيه . ويتدققون المشكلات ويبحثون عن حلولها بالحس الإسلامى . .

ومن ثم كانوا مستوفين لشرطين الأساسيين لشأفة فقه إسلامى ، ونظوره ليواجه الأحوال المتطورة . فوق استيفائهم طبعاً لشروط الاجتهاد ، ولتى لا محال لها ولا داعى لبيانها لأنها بديهيّة !
فأما الآن . . فهاد ؟؟

إنه لا بد أن نحسب حساب عوامل كثيرة ، تعد نمو الفقه الإسلامى وتطوره الآن عن منهجه الأصين

لا بد أن نحسب بعد لواقع العمل ، والواقع النفسى والعقلى ، والواقع الشعورى والاعتمادى ، عن جو الإسلام والحياة الإسلاميه ولا بد أن نذكر أن لمشكلات التى توجّهها مجتمعاتنا ليست مشكلات مجتمع إسلامى ، حتى تستبطلها أحكاماً فقهية إسلامية !

ولا بد أن نحسب حساب الهزيمة العقلية والروحية أمام الحضارة الغربية ،
وأمام الأوضاع الواقعية . . . والإسلام يواجه « الواقع » دائماً . ولكن لا ليخضع
له ، بل ليخضعه لتصوراته هو ، ومنهجه هو ، وأحكامه هو ، وليستبقى منه
ما هو فطري وضروري من النمو الطبيعي ، وليجتث منه ما هو طفيلي وما هو
فضولي ، وما هو مفسد . . . ولو كان حجمه ما كان . . . هكذا فعل يوم واجه
جاهلية البشرية ، وهكذا يفعل حين يواجه الجاهلية في أي زمان .

إن أولى بوادر الهزيمة هي اعتبار « الواقع » أيًا كان حجمه هو الأصل الذي
على شريعة الله أن تلاحقه ! بينما الإسلام يعتبر أن منهج الله وشريعته هي
الأصل الذي ينبغي أن يفىء الناس إليه ، وأن يتعدل الواقع ليوافقه . وقد
واجه الإسلام المجتمع الجاهلي - العالمي - يوم جاء ، فعذله وفق منهجه
الخاص ، ثم دفع به إلى الأمام .

وموقف الإسلام لا يتغير اليوم حين يواجه المجتمع الجاهلي - العالمي -
الحديث . إنه يعذله وفق منهجه . ثم يدفع به إلى الأمام .

وفرق بين الاعتبارين بعيد . فرق بين اعتبار « الواقع » الجاهلي هو الأصل .
وبين اعتبار المنهج الرباني هو الأصلي . . .

إنني أنكر وأستنكر استفتاء الإسلام اليوم في أية مشكلة من مشكلات هذه
المجتمعات . احتراماً للإسلام وجديته . . . وإلا فأى هزء واستخفاف أشد من
أن تجيء لقاض تطلب حكمه ، وأنت تخرج له لسانك . وتعلنه ابتداء أنك لا
تعترف به قاضياً ، ولا تعترف له بسلطان . وأنت لن تنقيد بحكمه إلا إذا وافق
هواك ! وإلا إذا أقرك على ما تهواه !

إن الإسلام لا علاقة له بما يجري في الأرض كلها اليوم ، لأن أحداً لا يحكم
الإسلام في حياته ، ولا يتخذ المنهج الإسلامي منهجاً لمجتمعه . ولأن أحداً لا
يحكم بشريعة الله وحدها ، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها ، ولا

يجعل الكلمة الأولى والأخيرة في شئون الحياة كلها لله ولشريعة الله .
والذين يستفتون - بحسن نية أو بسوء نية - هازلون ! والذين يردون على هذه
الاستفتاءات - بحسن نية أو بسوء نية - والذين يتحدثون عن مكان أى وضع
من أوضاع البشرية الحاضرة من الإسلام ونظامه ، أشد هزلًا . . وإن كنت
أعلم عن الكثيرين منهم أنهم لا يعنون الهزل ولا يستسيغونه - لو فطنوا إليه في
شأن الإسلام ! إنما يستفتى الإسلام في الأمر حين يكون الإسلام وحده هو
منهج الحياة . ذلك عند قيام المجتمع الإسلامى . المجتمع الذى يتخذ
الإسلام شريعته ولا تكون له شريعة سواء - عندهما يأذن الله ويشاء .
وثقتنا في رحمة الله بالبشرية تجعلنا نرجو دائماً أنه - سبحانه - سيأذن بهذا
ويشاء . .

فقيام هذا المجتمع - كما قلنا وكما نكرر - ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية ،
وتلبية لنداء الفطرة في ساعة العسرة . .
وإن كانت حتمية الميلاد لا تغنى شيئاً عن آلام المخاض . .



ولكن كيف ؟ وهذا الواقع البشرى الضخم يواجه الإسلام ؟
على الذين يسألون هذا السؤال أن يتذكروا كيف وقع هذا الأمر أول مرة !
لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ، ويقول لها - كما
أمر- : إنها في جاهلية ، وإن الهدى هدى الله . .
ثم تحول التاريخ . . تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة في قلب ذلك
الرجل الواحد . تحول على النحو الذى يعرفه الأصدقاء والأعداء !
هذه الحقيقة التى استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد ، ما تزال قائمة
قيام السنن الكونية الكبرى . . وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت
إلى جاهليتها !

وهذا هو الأمر في اختصار وإجمال . .

توجد نقطة البدء . نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب . . في عدة
قلوب . . في قلوب العصابة المؤمنة . . ثم تمضي القافلة في الطريق . . في
الطريق الطويل . . الشائك . . الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها
الهدى أول مرة - فيما عدا بعض الاستثناءات - ثم تصل القافلة في نهاية الطريق
الطويل الشائك . . كما وصلت القافلة الأولى . .

لست أزعم أنها مسألة هينة . ولا أنها معركة قصيرة . . ولكنها مضمونة
النتيجة . . كل شيء يؤيدها . . كل شيء حقيقي ، وفطري ، في طبيعة
الكون ، وفي طبيعة الإنسان . . ويعارضها ركام كثير . ويقف في طريقها واقع
بشرى ضخمة . ولكنه غشاء ! ضخمة نعم . . ولكنه غشاء !
« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

المحتويات

الصفحة

تدمير الإنسان	٥
الإنسان ذلك المجهول	٩
تخطيط واضطراب	٣٥
الإنسان وفطرته واستعداداته	٤١
المرأة وعلاقة الجنسين	٦٦
النظم الاجتماعية والاقتصادية	٩٠
حضارة لا تلائم الإنسان	١٠٩
عقوبة القطرة	١٢٣
كيف الخلاص ؟	١٦٧
طريق الخلاص	١٨٧

رقم الإيداع : ٨٨ / ٣٠٥٢

الترقيم الدول : ٩ - ٢١٤ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشرواق

القلعة : ٨ شارع ميبوه المصري - ت : ٤٠٢٣٩٩ - فاكس : ٤٠٢٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)